

القيروان قاعدة "الصفّ الحسيني" من خريف عام 1735 م إلى نهاية سنة 1736 م

د. إبراهيم محمد السعداوي

تاريخ حديث ومعاصر. الجامعة التونسية

تعتبر موقعة سمنجة يوم 4 سبتمبر 1735م نقطة تحول كبيرة بالنسبة إلى أطراف النزاع والقوى الاجتماعية الفاعلة بالإيالة التونسية، لأنّ الأزمة تفاقمّت إثر تلك المعركة وتطورت الأوضاع العامة نحو القطيعة والانقسام وانتشار مظاهر العنف. فقد ظهرت قوتان سياسيتان حول أقطاب الأسرة المالكة من جهة "الصفّ الباشي" ومن جهة أخرى "الصفّ الحسيني"، واضطرت القوى الأخرى خاصة وجهاء المدن وزعماء البادية إلى اتّخاذ مواقف كانت في جملتها غير ثابتة. وثمّن زعيم "الصفّ الباشي" الذي جاءت به محلة الجزائر انتصاره العسكري في سمنجة حيث استولى على أمحال عمّه الباي حسين بن علي (1705م-1740م) وغالب ذخائرها، وشرع في ترتيب شؤون العاصمة الحزينة التي دخلها بعد ثلاثة أيام أي في السابع من شهر سبتمبر 1735م وتركيز نفوذه

بشمال البلاد والاستعداد لملاحقة خصومه⁽¹⁾. بينما استقر عمه مع أولاده بالقيروان التي صارت آنذاك رمزا "للصف الحسيني" وعاصمة ثانية للإيالة : فقد «...نافقت معها أهل سوسه والمنستير والقلعة الكبيرة ونجع جلاص والشطر من مساكن وبعض قرى من الساحل...» حسب رواية ابن يوسف، كما اضطلعت بالدفاع عن وحدة البلاد المهددة و"الشرعية" الضائعة ورفضت الانقلابيين المدعومين آنذاك من "أتراك" الجزائر⁽²⁾ فما هي الترتيبات التي اتخذها الباي حسين وحاشيته داخل قاعدتهم الجديدة ؟ وكيف تحولت القيروان بسرعة إلى قلعة متقدمة "للصف الحسيني" ومنطلقا للحرب والإغارة رغم

(1) ذكر ابن يوسف أن «...علي باشا (...) قدم هو ومن معه من العسكر ومحلة الجزيرية وأخذ تلك الأمحال والخزائن والمدافع وذلك الزوج أو الثلاثة من الأيغال التي ليس لها قيمة من المال لم يكسبهم سلطان في رباطه ولا أمير في دوايه وتشتتت تلك الأموال وخصوصا محلة العسكر وما فيها من الحرج والحوايج...» راجع : ابن يوسف، محمد الصغير، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، المكتبة الوطنية بتونس، مخطوط رقم 10868، ورقة 67، مخطوط رقم 5249 ورقة 74-75؛ مقديش، محمود، نزعة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 1988، ج 2 ص 159-161؛ ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الطبعة الثانية، الدار العربية للكتاب، تونس، 2004، م 1، ج 2 ص 112-113؛

Rousseau A., *Les Annales Tunisiennes*, 2ème édition, Editions Bouslama, Tunis 1980, p. 115-121; Ganiage J., *Les origines du protectorat français en Tunisie (1861-1881)*, Tunis, 2ème édition 1968, p. 144, 148; Despois J., *La Tunisie Orientale, Sahel et Basse Steppe*, P. U.F., Paris 1955, p. 170-171, 184; Chater K., *Dépendance et mutations précoloniales: la Régence de Tunis de 1815 à 1857*, Pub. de l'Université de Tunis, 1984, p. 116-117, 119.

(2) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77؛ ابن عبد العزيز، حمودة، التاريخ الباشي، المكتبة الوطنية بتونس، مخطوط رقم 18666، ورقة 368-369؛ الوزان الفاسي، الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، تحقيق محمد الأخضر ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، 1983، ج 2 ص 83-87، 90؛

Peyssonnel, et Desfontaines, *Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger*, Paris, 1838, T. 1, p. 31-35, 105-108, 113-114; Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire politique de la Tunisie de 1728 à 1740 », in *Revue Tunisienne (R.T.)*, n° 164, Janvier-Octobre 1925, p. 294; Ganiage J., 1968, p. 126-129, 143-144, 149-151; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 153-165. Voir aussi : Lombard M., 1971, p. 155-157.

شهرتها الدينية ودور المصالحة والتهدئة الذي اضطلعت به جلّ زواياها داخل منطقة السباسب السفلى ؟

1 - الباي حسين بن علي يحول القيروان إلى مركز قيادة :

كان الباي حسين في خريف عام 1735م مدركا تمام الإدراك لجسامة المسؤولية المطروحة على عاتقه، نظرا لتجربته الطويلة في الحكم واطلاعه على واقع مؤسسة المخزن ونقائصها. فهو عارف بأهمية التحديات التي تنتظره لاسيما أن مجال القيروان قارّي وغير محظوظ من الناحية الطبيعية، كما أن غالب العروش الرعية صارت تناصبه آنذاك العداء⁽³⁾. ويبدو أنه تأثر كثيرا بردة بعض الطامعين والمتزلفين الذين كانوا في السابق ضمن حاشيته، حيث سخروا إشعاعهم وعلاقاتهم لفائدة ابن أخيه الباشا خاصة بحاضرة تونس مثلا آغة القصبة والحاج سليمان كاهية وعثمان انقليز وغيرهم⁽⁴⁾. فما هي الإجراءات التي اتخذها الباي حسين لتحويل القيروان إلى مركز قيادة ضد "الصفّ الباشي" ؟

(3) ذكر الوزان أن القيروان «...تقع (...) في سهل رملي قاحل لا تنبت فيه أشجار ولا حبوب...»، ويضيف العبدري أن هذه «...المدينة نفسها ليس لها بر ولا بحر، ولا سحر ولا نحر، وضعت في سبخة قرعا، لا ماء بها ولا مرعى ولا تنبت أصلا ولا تنقل فرعا...». راجع : الوزان، 1983، ج 2 ص 90؛ العبدري الحichi، أبو عبد الله محمد بن محمد، رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط 1968، ص 64. وكذلك : البكري، أبو عبيد، كتاب المسالك والممالك، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس 1992، ج 2 ص 675-680؛

Atlas de Tunisie, Editions Jeune Afrique, Paris 1979, p. 6-8, 18-23; Despois J., 1955, p. 22, 24, 26, 54, 56, 203; Talbi M., « Al Kayrawan », in *Ency. De l'islam (E. I.)*, nouv. édition, T.4, Leiden-Paris, 1978, p. 857-858; Sethom H., Kassab A., *Les régions géographiques de la Tunisie*, Publication de l'Université de Tunis, 1981, p. 253-261.

(4) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 363-365، 367؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 73-75، مخ. 5249 ورقة 65-67؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 85-87، 113، 117-118.

أ - الاستقرار بدار الباي وترتيب الأمور =

استقر الأمير حسين بدار الباي الكائنة على الأرجح بالناحية الشمالية الغربية للمدينة، ويفصل ذلك الموضع بين حومة الأشراف وحومة الممر ويعرف لحد اليوم باسم حومة الباي. ولعلها تعني الدار التي أقام بها محمد باي المرادي (ت. أكتوبر 1696م) إثر تقاسمه السلطة مع شقيقه علي باي (ت. أواخر شهر جوان 1686م) حتى شهر ماي 1684م. وشيد المخزن على مقربة منها سجن المدينة الذي كان يعمل حسب طريقة الالتزام، وتحد هذا الحبس من الجهة الخلفية دار تعرف لحد الآن باسم مطبخة الباي (5). وتشير وثائق بداية القرن الثامن عشر إلى دار الباي وسانيته والبئر التابعة لها وتحدث في نفس الوقت عن برج باردو، فمثلا تفيد محاسبة عام 1123 هـ/1711م - 1712م أن وكيل أملاك الدولة أنفق 21¼ ريال لأجل «...إصلاح برج باردو التي بالقيروان كما ذلك مبين في زمام بالعدالة في زوج صفحات...» ومبلغ 88½ ريال «...على دار سيدنا لما كان سيدنا بالقيروان بحضوره بخط العدالة في زمام به صفحتين...» (6).

وعين المخزن بعض الممالك والأجراء للسهر على تلك الأملاك وحفظها وخدمتها، بينما تولّى وكيل القيروان وعاملها الإشراف على أشغال البناء والترميم التي تخص تلك العقارات المتعددة. فعلى سبيل المثال تفيد

(5) خوجة، حسين، ذيل بشأنر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ب. ت. ص 100-101، 103-104؛ ابن يوسف، محمد الصغير، التكميل المشفي للقليل على كتاب العبر لعبد الرحمان ابن خلدون، مخ 5264، ورقة 194؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 287-288، 368-369؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 54-55؛ السعداوي، إبراهيم، "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان في العهد العثماني الأول"، مسار مؤرخ وتجربة تاريخية، مركز النشر الجامعي، 2008، ص 65.

(6) بلغت جملة المصروف الذي قام به هذا الوكيل 1564¼ ريال. راجع : أ. و. ت. دفتر 3 ص 269؛ السعداوي، "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان.."، مسار مؤرخ...، 2008، ص 41-42.

محاسبة سنة 1123هـ/1711-1712م أن قايد القيروان صرف ضمن باب "الخرج الطاري" 41¼ ريالات لفائدة «...الزوج نصارى الذي في دار سيدنا عن المدة (أي سنة) كل يوم ستة ناصرية...»⁽⁷⁾. وأنفق الوكيل محمد دعدوش سنة 1146 هـ/1733-1734م «...لمونة دار سيدنا...» 24 مطر زيت و19½ قفيز قمح تونسي، وكذلك 54 ريال «...حق سمن عن مدة العام...» باعتبار 37½ رطل في كل شهر. كما صرف 192¼ ريال و 11½ ناصري «...في حق جبر وياجور وأجرة معلمين...» لصيانة تلك الدار، واشترى أيضا دارا بقيمة 130 ريال لتوسيع «...مخزن مراكيب سيدنا بالقيروان...»⁽⁸⁾.

ولا تسعفنا المصادر بأخبار شافية حول بناء البرج والدار المذكورين، لأن محاسبات أعوان المخزن ترصد أساسا قيمة "التذاكر" التي صُرِفَت أحيانا على تلك العقارات والقائمين عليها. وتفيد الوثائق أن برج باردو يقع وسط بستان عامر بالأشجار المثمرة، وكان «...جنان سانية سيدنا بباردو...» يتقاضى في سنوات 1730م راتبا سنويا قدره 33½ ريال (أي 3 نواصر يوميا) وله أيضا "عادة" يأخذها من وكيل الطعام قدرها قفيزين قمح في كل عام⁽⁹⁾. والمؤكد أن الباي حسين بن علي شيد في أول عهده برج باردو لإقامته عند قدوم محلة الشتاء إلى "دار القيروان"، وقد شاهده الرحالة الفرنسي بيسونال Peyssonnel في صيف عام 1724م رغم أنه لم يعجبه كثيرا. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الباي أنشأ أيضا قصر باردو بجوار باجة، وكانت تلك البناية الكبيرة التي

(7) أ. و. ت. دفتر 3 ص 193.

(8) أ. و. ت. دفتر 8 ص 95-97.

(9) أ. و. ت. دفتر 8 ص 94؛ دفتر 12 ص 147. حول معنى "السانية" راجع : ابن منظور، برنشفيك، ج 2 ص 216-217.

تتوسط بستانا عامرا مخصصة بدورها لإقامته عند مجيء محلة الصيف⁽¹⁰⁾. لكن ذاكرة القيروانيين أغفلت هذا البرج بصفة كلية، بينما لا يزال قصر باردو حاضرا لحد اليوم في النسيج الحضري لعاصمة "قريفا" والمخيال الاجتماعي لأهلها. وتشير المصادر أحيانا إلى موضع يحمل اسم "جنان الأمان" أو "دار الأمان" ويقع خارج أسوار القيروان وتحت مرمى مدافعها، ولعل هذا المكان الريفى الذي يبعد تقريبا 1500 متر ناحية طريق تونس كانت به فى الأصل دارا كبيرة لإقامة الباى أو ولى عهده حينما تحط محلة الشتاء رحالها فى "دار القيروان"⁽¹¹⁾.

ويبدو أن وجهاء "القراوة" سهلوا كثيرا عملية استقرار الباى وأبنائه وأنصارهم، وتشاوروا فيما بينهم حول تنفيذ التزاماتهم وتعهداتهم. وتؤكد الرواية أن الباى «...بعث مع الحاج علي بن حمامه الحاج سلامة الجبني إلى دار الحاج علي فدخل داره وأخرج قفافا مخططة وأتى الرمانة فوزنوا ذلك المال فوجدوه تسعة آلاف إما أن يزيدون أو ينقصون شيئا قليلا والماية ناصري وزنها رطلان ونصف (...). ثم قال الحاج علي للحاج سلامة اجمع الزوايل لرفع الشعير فأحضر الزوايل والأحمال فجاء إلى خربة طايحة بقرب داره وكشف وجوه المطامر واكثرى لها الرجال للتطليع فطلعوها وقبلها الحاج سلامة

(10) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 30، 76، 80، مخ. 5249 ورقة 33، 86، 91؛ السعداوي، إبراهيم، "التحولات العمرانية والبشرية بمدينة باجة فى العهد العثماني"، *المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية* (م. ع. د. ع.)، عدد 33، سبتمبر 2006، ص 15-116؛

Peyssonnel, 1838, T. 1, p. 114; Frank L., et Marcel J. J., *Histoire de Tunis*, Editions Bouslama, 2e édition, Tunis, 1979, p. 24; Pellissier E., *Description de la Régence de Tunis*, Editions Bouslama, 2ème édition, Tunis 1980, p. 33, 119.

(11) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 80، مخ. 5249 ورقة 91؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 144؛ أشار الضابط الفرنسى بيليسيى الذى تردد عدة مرات على القيروان فى أواسط القرن التاسع عشر إلى أن دار الأمان هي بستان على طريق تونس، وتوجد به دار تابعة آنذاك للسيد محمد الشاوش كاهية الوجة. راجع: Pellissier E., 1980, p. 118-119.

ثم قبض من عنده القمح...»⁽¹²⁾. وبرزت بعض الخلافات بين "أكابر القيروان" حينما ناقشوا مسألة إعالة الباي وأولاده وأتباعهم وكيفية تقاسم نفقاتهم اليومية العادية، ولعلمهم تخوفوا من ذلك العبء اليومي الذي سيكلّفهم كثيرا خاصة أن مدة الصراع غير معروفة ومحاصيل الفلاحة بمنطقتهم كثيرة التذبذب. ويؤكد ابن يوسف أن الحاج علي بن حمامة هو الذي أنقذ الموقف إذ قال لهم : «...أنا أصنع له ولولديه كل يوم ثلاثة مئارد نودّيتها إليه...»، والتزم ذلك الوجيه بانجاز تعهده حتى وفاته يوم معركة جمّال⁽¹³⁾.

والراجح أن الباي حسين أعاد تشكيل "بلاطه" وحاشيته المصغرة، لاسيما أن العديد من وجهاء دولته التحقوا به مع أتباعهم مثلاً علي بن مريقة وأحمد شلبي وأولاد السبعي وغيرهم. واختار بعض فقهاء القيروان للصلاة معه ومسامرته وحضور مجالسه الخاصة، خصوصا أنه فقد أقرب مستشاريه أي الحاج يوسف برتقيز الحنفي والقاضي المالكي علي شعيب⁽¹⁴⁾. وكان الأمير آنذاك في أشد الحاجة إلى الظهور في صورة السلطان المؤمن بالله والقائم بشعائره، لاسيما أن "القراوة" يعتبرون حاضرتهم رمزا للدين الصحيح ومرجعا لأحكام الشريعة. وأكد مؤلف "الكتاب الباشي" أن علي باي كان «...كثير الزيارة...» لقبر السيد علي العواني «...أيام إقامته بالقيروان

(12) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77.

(13) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77.

(14) خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان...، ص 259-160؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 48-55، مخ. 5249 ورقة 54-64؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 115-116؛ التائب، منتصف، بلاط باردو في عهد حسين بن علي (1735-1705)، شهادة الكفاءة في البحث (مرقونة)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، سبتمبر 1990، ص 39-61؛ السعداوي، إبراهيم، "قضاء المخزن الحسيني والتمرد حتى سنوات 1750 م : القاضي علي شعيب نموذجاً"، القضاء، الدولة والمجتمع في المجال المتوسطي عبر العصور، أعمال ندوة قسم التاريخ، (سوسة، 8-6 ديسمبر 2004)، رادس 2007، ص 38-17.

خصوصا أيام حربه...» (15). ولم يتردد الباي في مصاهرة أعيان "البلدية" لاعتبارات اجتماعية وسياسية، لكن جميع المصادر أغفلت تلك الجوانب المهمة في الحياة الخاصة للباي وركزت على الأحداث الميدانية. وذكر أحد موظفي قنصلية فرنسا بتونس أن الأمير حسين زوج ابنه علي باي قبل شهر مارس عام 1736م من ابنة أشهر أولياء القيروان، ونسج نجله محمد الرشيد باي على هذا المنوال لما صار عاملا لقيادة سوسة إذ تزوج بابنة المسمى الشيخ جمال الدين أحد وجهاء تلك المدينة (16). واتخذ الباي نوعا من الحرس الخاص (حوالي 200 مسلح أو أكثر) تحسبا لكل طارئ واختارهم من بين عسكر زواوة وفرق الصباحية، وصار لا «...يخرج إلا في وسطهم وقيل عاهدوه أنه إذا وقع عليه وحصلوه ما يهرب عليه أحد...» حسب ابن يوسف (17).

وبالتالي فإن دار الباي تغيرت صورتها كثيرا وتدعم دورها التقريري، بينما تراجع إشعاع مؤسسات النفوذ المحلي المألوفة أي دار القايد والقصة. وتحولت تلك الدار شيئا فشيئا إلى قصر حقيقي وضربت حولها حراسة مشددة لإظهار هيبة الأمير، واستندت الحياة داخلها إلى ثقافة المخزن واعتمدت الترتيبات التي كانت شائعة في السابق بقصر باردو. فقد كان الأعوان يقابلون سيدهم كالعادة كل صباح ويتلقون أوامره، كما يطلعونه على آخر ما عندهم من

(15) أضاف هذا المؤرخ في نفس السياق : «...كان لا يخرج إليها (أي الحرب) حتى يقدم زيارته فلم يصبه مكروه ولم يفقد أحد من الفرسان كتيبته المختصة به إلا يوما واحدا ترك زيارته قبل خروجه فمات فيه أبو الضياف بن الغزاة أحد الفرسان المشهورين ولم يزل إلى الآن مكرا لذريته محسنا إليهم قاضيا لحوايجهم...». راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 381. راجع أيضا : الماجري، حمدة، صلحاء القيروان بين الحقيقة والخيال، تونس، 2006، ص 204، راجع كذلك ص 19-25، 201-203.

(16) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 78، مخ. 5249 ورقة 88؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 360-363، 366-369؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 111-115؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 165, mai 1926, p. 352.

(17) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 80، مخ. 5249 ورقة 90.

أخبار⁽¹⁸⁾. واحتكرت هذه الدار صناعة القرار وممارسة السلطة بالقيروان ومجالها، وصارت الوجهة المفضلة لوجهاء الناس وأعيان المماليك وأعضاء الوفود و"السيرة". فقد أضحت مركزاً لتجميع الأخبار ومناقشة جميع الأمور الطارئة، وهي الفضاء الذي تتم بداخله مناقشة شئون الساعة وإصدار الأوامر المختلفة وصياغة الخطط العسكرية. فقد نوقشت بين جدرانها جميع القضايا الساخنة والملفات المهمة واتخذت بها جلّ القرارات المصيرية بالنسبة "للفصّ الحسيني" إلى يوم اقتحام المدينة، مثلاً قضية الاستتجاد بعروش الحناشنة أو ترتيب بعض الغارات وتنظيم الكمائن مثلما سنبينه لاحقاً⁽¹⁹⁾. وكان الباي حريصاً على إشراك شيوخ الأحياء في مجالسه واستشارتهم، لأنهم أكثر التصاقاً بعامة الناس من غيرهم ولهم دور كبير في تعبئتهم وفرض الأمن.

ب - مراقبة المدينة و تأمين المجال الحسيني =

انشغل الباي منذ البداية بضبط المدينة وإحكام مراقبتها، لاسيما إثر تكرار الشتات في صفوف أنصاره وانتشارهم داخل الأحياء. ومن المؤكد أنه راجع مع مستشاريه قائمة أصحاب الخطط المدنية والأمنية (الشيوخ، الأمناء، أئمة المساجد وغيرهم) بالقيروان، ولعلّه استعان بآراء وجهاء المدينة وعلمائها

(18) ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 99، 107، 112-113؛ العشي، عمار، الهياكل الإدارية والعسكرية والحياة الاجتماعية والدينية بالقيروان في عهد محمد الصادق باي 1859-1881، ش. ك. ب.، (مرونة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1985، ص 22-25، 47-48، 65-73؛ السعداوي، "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان..."، مسار مؤرخ...، 2008، ص 46-52؛ التاييب، ش. ك. ب.، (مرونة)، سبتمبر 1990، ص 122-123، 125-127؛

(19) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 369، 371-372، 374-375؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، 71، 75-76، مخ. 5249 ورقة 78-79، 84-85؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113-114؛ الحناشي، ش. ك. ب.، 1988، (مرونة)، ص 60-65؛ معاشي، جميلة، "أسرة أحرار الحناشنة بين بايات قسنطينة وبايات تونس"، المجلة التاريخية المغاربية (م. ت. م.)، عدد 128، جوان 2007، ص 147-148، 155-160.

لإدخال التعديلات اللازمة عليها⁽²⁰⁾. وحظيت الشؤون العسكرية باهتمام كبير إثر الانتكاسة التي حدثت يوم سمنجة، لاسيما أن المواجهات مرشحة للانطلاق في أية لحظة ضد "الصف الباشي" والمدينة مهددة بالحصار. وأعتقد أن الباي قام مع ضباطه وأعيان مماليكه (مثلا علي الجنوبي أو مسعود كاهية) بتفقد الأسوار والقصبة وحددوا احتياجات "النوبة"، ولعلمهم صاغوا خطة عملية لحراسة أبواب المدينة وأحيائها ومراقبة "البلديات" ومدن وقرى جهة الساحل. واتفقوا تقريبا في شتاء عام 1736م على حفر خندق كبير يحيط بالمدينة وأحيائها، والراجح أن أعمال الحفر دامت عدة شهور وشارك فيها عامة الناس وأبناء العروش الحسينية⁽²¹⁾.

ومن المؤكد أن الأمير حسين ركز بالتعاون مع مشايخ جلاص نقاط مراقبة على أطراف مجال القيروان ومنطقة الساحل، وذلك لتقصي الأخبار ومراقبة تنقلات الأعداء وعملائهم. لكن هذه الإجراءات لم تبدد في الواقع مخاوف الباي الذي كان مطلعا على نقائص مؤسسته العسكرية، لأن غالب الجنود الانكشاريين انضموا منذ يوم سمنجة إلى علي باشا (1735م-1756م)

(20) أملت ظرفية الحرب على الباي تعيين العناصر الموالية له شخصا في الخطط بالمدينة لأن أصحابها على اتصال يومي بالأهالي ولهم تأثير على مواقف الناس، لكن المصادر أغفلت هذه الأمور لاكتفائها بتلخيص الأحداث السياسية. راجع: ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 112-114؛ السعداوي، "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان..."، مسار مؤرخ...، 2008، ص 46-52.

(21) ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 374؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 79. أطلقت عبارة "البلديات" على 15 قرية صغيرة تابعة لقيادة القيروان مثلا الفج وقمودة والهوارب والعدام والفكرون وغيرها، وكانت متفاوتة من الناحية الديمغرافية والاقتصادية. لكن كلمة "البلديات" كانت معروفة أيضا بجهة قابس وشط الجريد وتعني الواحات الصغيرة، كما أطلقت تلك العبارة على القرى الأندلسية سواء بحوض مجردة الأوسط أو بالوطن القبلي. راجع: أ.و.ت. دفتر 3 ص 195، دفتر 22 ص 112؛ دفتر 45 ص 25، 39، 45؛ السعداوي، إبراهيم، تطور عائلة مخزنية بنونس في العصر الحديث: آل بن عياد بين سنوات 1740 و 1837 م، ش. د.، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بنونس، 1999، (مرفقة)، ص 290-292، 333-351؛ "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان..."، مسار مؤرخ...، 2008، ص 44-46.

الذي نجح في استمالتهم وتظاهر آنذاك بحمايتهم⁽²²⁾. وتجدر الإشارة إلى كون القرى الصغرى أضحت بين المطرقة والسندان لأنها معرضة بصفة مباشرة لضغط أمحال العدو، ولم يكن بوسع سكانها سوى الهروب والاختفاء بالبادية لأنهم لا يملكون أية قوة للصمود أمام العسكر أو فرسان المخزن. ومن المحتمل أن هواجس الرعب هي التي دفعت أهل الفكرون وأهل بني جرير إلى إخلاء مداخلهم، لأن الوثائق تحدثت عن انتقال جميعهم إلى داخل أسوار القيروان⁽²³⁾.

وكان الباي حسين بن علي الذي حنكته التجارب وصروف الدهر واعيا بضعف ولاء العديد من الناس ومتخوفا من النشاط السري لخصومه داخل المدينة، خصوصا أن العناصر الباشية تتحرك بحذر تحت غطاء الحياد والمسالمة وبعض الشعارات الإسلامية الجذابة كنذب الاقتتال ورفض الحراية وتجنب الفتنة وغيرها⁽²⁴⁾. والراجح أنه ركّز مع مستشاريه جهاز استخبارات لرصد مواقف السكان وانشغالاتهم وملاحقة المتعاونين مع علي باشا وإحباط مخططاتهم، ويظهر أنهم ضبطوا قائمة اسمية للنخبة القيروانية لاسيما وجهاء المال وكبار التجار الذين كانوا على صلة مباشرة بنشاط الأسواق وحركة الأسعار. وشملت هذه الإجراءات الأمنية بقية مدن الساحل لاسيما سوسة والمنستير، علما أن هذه الموانئ المفتوحة كانت مرشحة للاختراق والتآمر أكثر

(22) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 367، 371-372؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 111-112.

(23) أ. و. ت. دفتر 26 ص 156.

(24) ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 86-89، 91-94، 106-107؛ خوجة، ذيل بشارت أهل الإيمان....، ص 112-113، 115-117؛ السعداوي، إبراهيم، "الزاوية الغريانية من طاعة الله إلى خدمة المخزن"، ملتقى: القيروان وجهتها: دراسات جديدة في الآثار والتراث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، 1-4 أبريل 2009؛

Bey M., De la dynastie husseinite. Le fondateur Hussein ben Ali, Serviced, Tunis, 1993, p.29-42, 46-48, 81-92 ; Cherif M.H., * 1984, T. 1, p. 113-143, * 1986, p. 20-31.

من غيرها (25). ولم يكن الأمير وأولاده في الواقع مرتاحين حتى للأشخاص المحسوبين على "الصف الحسيني" (مثلا مشايخ الأحياء والعروش، الفقهاء، الأولياء) لأنهم على بيئة من ثقافة المخزن وهشاشة الولاء وتفشي الانتهازية في صفوف "المخازنية"، ويبدو أنهم صاروا حذرين أكثر من أي مضي إثر خيانة نصر بن أبي الضياف زعيم قبيلة دريد. فقد سرّحه الباي من الحبس «...وقابله ثم رجع إلى أهله وأولاد عمه...»، وحينما «...طلع النهار هرب كثير دريد ولا بقي مع الباي حسين إلا القليل...» (26).

وحرص الباي ومستشاروه على وحدة الجبهة الداخلية بالمجال "الحسيني" لاسيما داخل القيروان وسوسة والقرى الكبيرة، وذلك لتوفير حظوظ أكثر لمواجهة أمحال علي باشا ومهاجمة البلدات المحسوبة عليه. وشدّد على أعوانه في تطبيق الأحكام وردع التجاوزات، وأوصاهم بمنع مظاهر الإخلال بالأمن التي قد تحدث بالمقاهي والشارع. ويبدو أن غالب سكان منطقتي السباسب السفلى والوسط الشرقي تجاوبوا مع الدعاية الحسينية، لاسيما من تسميم المصادر "الأحداث" و"السفهاء" الذين سيطروا على الشارع. ويظهر أن ذلك التأييد الواسع يرجع إلى بعد المسافة عن حاضرة تونس وتخوف الناس من جور الباشا وأبنائه، بالإضافة إلى ارتباط مصالح قسم من وجهاء المال بتجارة القوافل ومرافئ الشرق الإسلامي (27). ولكن هذه الرقابة المشددة لم تمنع ظهور

(25) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371-372؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 90.

(26) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in *R.T.*, n° 164, Janv.-Oct. 1925, lettre du 9 mai 1735, p. 293-294.

(27) الوزان، 1983، ج 2 ص 83-87، 90-91؛ السعداوي، "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان..."، مسار مؤرخ...، 2008، ص 55-56؛

Atlas de Tunisie, 1979, p. 6-7, 61; Frank L., 1979, p. 36-39; Pellissier E., 1980, p. 82-92, 117-119; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 162-165.

خلايا من المتعاطفين مع قضية علي باشا، وتفيد الروايات أن الذين أشرفوا عليها ونسقوا تحركات أفرادها كانوا ينتمون إلى وجهاء المخزن وأعيان رجال الدين. وكان هؤلاء الفاعلين المحظوظين اجتماعيا واقتصاديا على صلة مباشرة بالباي وأولاده، ولعلهم رجحوا أن التطوّر العام كان لفائدة سلطات تونس. وبالتالي فإن قناعاتهم دفعتهم إلى ربط الصلة مع "الصفّ الباشي" ولو سرا، لأن ذلك قد يجنبهم ظلم الباشا ولعله يغفر لهم الخدمات السابقة التي قدموها لعمه⁽²⁸⁾.

وتزعم هذا النشاط السري بالقيروان بعض أولاد الغرياني الذين تعاطف معهم قلة من الأعيان ورجال الدين، رغم استفادتهم من فترة حكم حسين بن علي والإشعاع الكبير الذي كانت تتمتع به زوايتهم. فقد تظاهروا بالمساندة تماشيا مع التوجه العام داخل المدينة، وشاركوا في مواكب استقبال الأمير وأبنائه وحضروا كغيرهم من الوجهاء إلى دار الباي⁽²⁹⁾. ولم يكن زعماء هذه الزاوية متقبلين لاحتضان مدينتهم القضية الحسينية وإعلان العصيان ضد تونس، والراجح أنهم اكتفوا في البداية بالدعوة إلى الحياد وعدم التورط في صراعات المخزن. ولم يرضوا بانحياز غالب الأهالي إلى الباي رغم تظاهرهم

(28) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 367، 372؛ السعداوي، "الزاوية الغريانية..."، ملئقى : *القيروان وجهتها* ...، 1-4 أفريل 2009.

(29) راعي يونس باي أثناء خروجه بمحلة الشتاء خلال سنوات الحرب الأهلية الإعفاءات الضريبية المتعلقة بعقارات سيدي عمر بوحجلة وزاوية الغرياني وزاوية الوحيشي. راجع : أ. و. ت. دفتر 26 ص 156. راجع أيضا : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79-80؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 366-368، 371-372؛ التتوخي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد المجذوب وعبد العزيز المجذوب، المكتبة العتيقة، تونس، 1993، ج 4 ص 252-261؛ السعداوي، "الزاوية الغريانية..."، ملئقى : *القيروان وجهتها* ...، 1-4 أفريل 2009؛ جراد، مهدي، عائلات المخزن بالإيالة التونسية خلال العهد الحسيني (1705-1888م)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، جوان 2009، (مرقونة)، ص 371-377.

Monchicourt Ch., *Etudes kairouanaïses, Kairouan et les chabbia (1450-1592)*, Tunis, 1939, p. 7-10.

بمساندته وترددهم المتواصل على داره، ولذلك ركزوا شبكة تجسس لجمع الأخبار ونقلها بطريقتهم إلى يونس باي وأتباعه⁽³⁰⁾. والراجح أنهم جندوا أتباعهم الأوفياء من الرجال والنساء لهذا الغرض، وساعدتهم وجاهتهم وشبكة علاقاتهم المركبة على تقصي أخبار دار الباي والأحياء. ويبدو أن نشاط هذه الخلية تزايد حينما صارت أمحال يونس باي تتجراً على الاقتراب من القيروان، وهو ما دفعهم إلى ترتيب خطة هدفها شل حركة المقاومة داخل الأسوار وتمكين ابن الباشا وجنوده من التسلل ليلاً إلى المدينة⁽³¹⁾.

لكن جواسيس الأمير حسين وأولاده تمكنوا من اكتشاف هذه المؤامرة قبل تنفيذها، حيث راقبوا تحركات أعضاء الشبكة واستطاعوا إلقاء القبض على بعض "السيارة" المشبوهين بناحية "دار الأمان". وأسند ابن عبد العزيز الدور الأكبر في إجهاض هذه العملية إلى سيده علي باي، لأنه كان يصعد إلى سطح

(30) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 367، 371-372؛ جاء في رواية ابن يوسف : «...ولما نافقت القيروان بكثيرهم لم يريدوا الغراينة وهم أهل زاوية كبيرة ومن أشرف زوايا القيروان ولهم سمعة ورعية في ذلك البلاد ولما رأوا الغراينة أكثر البلاد أعني أهل القيروان على النفاق وهم أحباب الباشا ويونس لم يقدروا أن يصنعوا شيئاً ظاهراً صاروا يبعثون إلى يونس ويخبرونه بما يصير في مدينة القيروان وخلطوا مع يونس لما نزل القيروان وبعث إليهم كيف يأخذ القيروان بعثوا إليه وقالوا له ارحل من تلك الدار التي أنت بها وانزل قبلة البلد ونحن ندخلوك القيروان في الليل فسمع بهم بعض الناس أو بعثوا مع بعض النساء...»، راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79.

(31) لخص مؤلف "الكتاب الباشي" تلك المؤامرة بقوله : «...وخرج يونس من الحضرة بمحلة الشتاء فأتى القيروان ونزل بباطن القرن فكان مولانا أيده الله تعالى يخرج كل يوم في أهل البلد إلى ظاهرها وكانوا كلما سمعوا هبة أو خافوا هجوم العدو عليهم جمعوا الطبل لاجتماع الناس فيخرجون أرسالا ويجتمعون بظاهر البلد فأتاهم مالك ومحمد الأحمر الغريانيان وقالوا له إنا نخشى من خروج الناس متفرقين إلى ظاهر البلد أن يهجم عليهم العدو قبل استكمال جمعهم فلا يقوموا له فلو وضعنا أسلحة الناس بمكان واحد فكلما ضرب الطبل اجتمعوا في ذلك المكان وأخذوا أسلحتهم وخرجوا جميعاً لمكان أحوط فاستقر الرأي على هذا وعينوا مكاناً لوضع الأسلحة...». وأعلمنا يونس باي «...أنهما تحيلاً في جمع أسلحة أهل البلد في مكان واحد مفاتيحه بأيديهما وأمره أن يرحل من باطن القرن فينزل على تبنان ويهجم على البلد يوم عيناه له فلا يقتحان مكان السلاح للناس ويفتحان له باب البلد الذي من ناحيته فيدخلها عليهم وكلهم عزل بلا سلاح فيملكها بسهولة...». ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371-372.

داره لمراقبة تحركات العدو بواسطة المنظار⁽³²⁾. وتجمع الروايات حول إدانة القيروانيين لاسيما الفئات الفقيرة لهذه المؤامرة الخطيرة، واعتبروها خيانة للباي وجريمة في حق المدينة وسكانها بناء على اعترافات المتهمين. والراجح أن علي باي أخبر والده في الإبان بتفاصيل تلك الحادثة، وكان رد الباي ومستشاريه عنيفا قصد إرهاب المترددين وكبح جماح عملاء علي باشا⁽³³⁾. فقد صدرت الأوامر بقتل كافة الذين ثبت تورطهم في العملية، ولا يختلف هذا الإجراء عن القسوة التي اعتمدها البايشا ضد جواسيس عمه والمتعاطفين مع أتباعه بالحاضرة. والراجح أن صنّاع القرار دفعوا العامة إلى التحرك بقوة ضد أولاد الغرياني وأتباعهم، ولذلك وجد المتحمسون والناقمون ضالّتهم للتكثيف بشيوخ الغراينة ونهب بيوتهم رغم أهمية نفوذ زوايتهم وإشعاعها على المستوى المحلي⁽³⁴⁾.

ولخصّ الصغير بن يوسف تلك الأحداث الدامية بقوله : «...ثم فشت سرهم للناس فسمعت أهل القيروان والأحداث منهم ومن هو ليس له حسب ولا

(32) ذكر مؤلف "الكتاب الباشي" حول تلك الحادثة ما نصه : «...فصعد مولانا أيده الله تعالى باثر ذلك يوما إلى سطح داره ينظر بالمرءات فرأى خيلا خرجت من المحلة فانتهدت إلى دار الأمان فأخذوا رجلين وحملوهما فظنهم أخذوهما أسيرين ثم عاود صعود السطح من الغد فرأى الخيل قد أقبلت من المحلة بالرجلين وتركتهما بدار الأمان حيث أخذوهما فنزل مسرعا وأمر الحاج علي بن عبد العزيز أن يركب في خيل معه ويمضي إلى دار الأمان فيأتيه بمن يجده هناك فركب ولم يكن بأسرع من أن أتاه بالرجلين فهدهما فأقرا أنهما رسولا مالك ومحمد الأحمر إلى يونس وأخرجاه إليه كتاب يونس جوابا عن كتابهما...» راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 372.

(33) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 372.

(34) صار الإعدام بالحاضرة قاعدة في التعامل مع الذين أخفوا أشخاصا محسوبين على عمه (أي أفراد أسرته وحاشيته أو أعوان دولته)، وتعرض بعضهم إلى عقوبة الحرق أو الإغراق بالبحيرة. راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371-372؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 78، مخ. 5249 ورقة 88؛ السعداوي، "الزاوية الغريانية..."، ملثقي : *القيروان وجهتها*، ...، 1-4 أبريل 2009.

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in *R.T.*, n° 165, mai 1926, p. 357-358.

نسب ولا قاع⁽³⁵⁾ ولا قطاع (...) فهجموا على زاوية الغراينة وديارهم ومسكوا اثنين أو ثلاثة من الغراينة وكتفوههم وطلعوههم إلى وسط القيروان وسطّروهم إلى أن طاحوا إلى الأرض وتركوهم ثم فزعوا إلى ديارهم وفيّوهم ولم يتركوا بديارهم شيئاً وهرب منهم من لم يحضر أجله وهربت العيالات ولا بقي أحد في ديارهم وقال لسان الحال يا أهل القيروان قد غلب عاقلكم وتغلب سفيهكم...»⁽³⁶⁾. وأضاف حمودة بن عبد العزيز أن الأعيان طالبوا أنذاك علي باي «...أن يمكنهم من القايد أبي الليل أحد قواد أبيه...» الذي قتلوه في نفس اليوم، بعد أن اطلع الأمير على «...خيانتته ووجد عنده كتباً كثيرة من علي باشا...»⁽³⁷⁾.

وظهرت الانتقادات لسياسة الباي داخل سوسة أثناء شهر سبتمبر 1736م في صفوف بعض وجهاء المخزن، علما أنهم كانوا ضمن أعيان الدولة وعمّالها مثلاً القايد الحاج علي اليميني وأحمد الغربي عامل باجة سابقاً. ويبدو أن هذين الرجلين نسقا بينهما حينما سافر محمد باي إلى النمامشة طلباً للنجدة، والراجح أنهما تيقنا من ضعف موقف سيدهم وتخوفا مما قد يلحقهم من قهر وعقاب. وحاولا كسب بعض الأعيان إلى جانبهم حتى تتسع قاعدتهم الاجتماعية، ولعلمهم جندوا الثقة من أتباعهم لترويج تلك الأفكار خاصة وسط السوق والمقاهي والجوامع والحمامات. ويظهر أن تلك الإشاعات والدعاية المغرضة وجدت قبولا لدى سكان سوسة الذين يعرفون جيّداً شدة الردع المالي، ولم تبق تلك التحركات سرية إذ خرجت عن نطاق مراقبة صنّاع المؤامرة. واطّلع محمد باي

(35) كلمة "قاع" وردت بالنسخة رقم 5249 وتعني عراقة النسب والانتماء إلى فئة الأشراف، إذ يقول المثل التونسي "من فم الخابية ولا من قاعها". بينما عوضتها في النسخة رقم 10868 عبارة "تباع" أي ج. تابع، وهي تعني الموالي وترمز ضمناً إلى الغنى والجاه الاجتماعي.

(36) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79-80.

(37) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 372.

إثر عودته على الوضع الطارئ، وأرسل "السيارة" على جناح السرعة لإعلام والده بأن الجماعة قد «...هجرسوا ويريدون أن يخدموا يونس...»⁽³⁸⁾. وتفيد الرواية أن الباي حسين وحاشيته انزعجوا من تلك التطورات المفاجئة، ولعلمهم تخوفوا من إمكانية وجود مؤامرات أخرى بالقرى وبقية المدن التابعة لهم. ولذلك توجه الأمير بنفسه مع خيرة فرسانه إلى سوسة، ويضيف ابن يوسف أنه «...دخل برج سوسة من باب غدر وبعث الرجال إلى الحاج علي اليميني ومن معه فشدوهم وكثفوهم...» باستثناء أحمد الغربي الذي استطاع الفرار باتجاه حاضرة تونس. كما وزع الباي 500 رجل من قواته داخل أحياء المدينة والقصبة، وذلك لملاحقة المشبوهين وإحكام السيطرة على الأهالي ومنع أي تحرك قد يهدد الأمن العام⁽³⁹⁾.

وكان لهذه المؤامرات وقع كبير على صناع القرار داخل المجال الحسيني، لأنهم تأكدوا من وجود جواسيس الباشا بين ظهرانيتهم وزيادة نشاطاتهم مع مرور الأيام حتى بالمدن الكبرى. وأعتقد أن ذلك الوضع الصعب دفع الباي إلى تشديد المراقبة أكثر من أي وقت مضى، والراجح أنه أوصى أعوانه الأوفياء بضرورة إحكام قبضتهم على الرعية وتدعيم الجوسسة المضادة وردع كافة التجاوزات ومنع المظاهر المخلة بالأمن التي قد تحدث بالمقاهي والشوارع. ولكن ما هي ملامح الدور العسكري الذي قام به سكان القيروان ومجالها في الصراع الحسيني - الباشي زمن الحرب الأهلية قبل تشديد الحصار على مدينتهم ؟

(38) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79-80. لم يشر مؤلف كتاب "الإتحاف" إلى هذه الحادثة. راجع : ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113.

(39) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79-80؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 376. راجع أيضا :

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 165, mai 1926, p. 359.

2. سكان القيروان ومجالها أمام معضلة الحرب ضد "الصف الباشي" :

يعتبر احتضان القيروان للقضية الحسينية في سبتمبر 1735م بمثابة الخطوة الأولى على طريق القطيعة الكلية مع سلطات تونس، ويترتب عن ذلك مباشرة الدخول في مواجهات عسكرية مفتوحة ومجهولة العواقب سواء ضد أمحال العسكر التي سيجزها علي باشا أو ضد البلدات والعروش التي اختارت الوقوف إلى جانب "الصف الباشي" والدفاع عن مشروعه. ويبدو أن القيروانيين غلبتهم في البداية حماسهم واندفاع العامة، لأنهم لم يقدّروا في الواقع حجم الجهود والتضحيات التي تنتظرهم خلال هذا الصراع غير المتكافئ⁽⁴⁰⁾. فقد كان علي باشا مدعوما من قبل شتات الجيش الانكشاري وبعض العروش الهامة كالوسالنية وأولاد عيَّار وغالب دريد، وهو يراقب منطقة "قريباً" التي تعتبر أهمّ خزان للمواد الغذائية الأساسية والأعلاف اللازمة لتجهيز الجيوش ومواصلة الحرب ضد عمه وأولاده.

وتشير الروايات إلى وجود نواة من المتحمسين للحرب سواء من عامة الناس أو خاصتهم، وكان هؤلاء الحركيين منشغلين بتتبع أخبار العدو وحريصين على استغلال الفرص للنيل من خصومهم. ويظهر أنهم لا يرغبون في التصادم مع العسكر لاعترافيهم بعجزهم عن ذلك، بينما كانوا مندفعين لمهاجمة فرق زواوة والكرغليين وأبناء البلدات وكذلك العروش الباشية. وكانت هذه النواة من الحركيين فاعلة بقوة داخل القيروان وخارجها لأن أفرادها جنّدوا أنفسهم وأملاكهم لنصرة الباي، لكن الحماسة ليست دائماً كافية لنحت الأحداث

(40) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 365-380، 398-402؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113-118، 118. راجع أيضاً :

Frank L., 1979, p. 26, 40, 189; Rousseau A., 1980, p. 115-116; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 163-164.

وصنع التاريخ. فما هي ملامح دور أهل القيروان ومجالها في ملف الحرب ضد "الصفّ الباشي" ؟

أ - المشاركة في الهجمات اليانسة على نواحي تونس =

يظهر أن الحركيين داخل القيروان سعوا منذ البداية إلى تعبئة الناس ودفعهم نحو ممارسة العنف، وركزوا بطريقتهم شبكة لتقصي أخبار حاضرة تونس وجبل وولات وبلدات الباشية بالوسط الشرقي. وعملوا دائما على تحيين الفرص المناسبة للانقضاض على خصومهم، ولعلهم أرادوا اختبار قدراتهم القتالية خاصة أثناء المواجهات التي يتغيب عنها الجيش الانكشاري. وفي هذا الإطار العام يتنزل خروجهم مع الباي لمهاجمة تونس لاسيما أن علي باشا كان منشغلا بترتيب شؤونه إثر رحيل محلة الجزائر، بالإضافة إلى كون الذين أصابهم ظلم جند الجزائر وجور الباشا صاروا منتظرين لعودة سيدهم الباي ومستعدين لنصرته⁽⁴¹⁾. وعلم القيروانيون أن الباشا أرسل محلة إلى ناحية الفحص قوامها حوالي ألفي زواوي بقيادة ابنه الأكبر يونس باي، رغم أن غالب أهل زواوة عرفوا بولائهم للنظام الحسيني حتى سنة 1735م وتفيد المصادر أن الهدف المعلن لهذه المحلة هو محاولة استقطاب عشائر دريد وكافة الذين تخلوا عن الباي أو سيغادرون مجاله، ولعل الباشا أراد تجنيد قطاع الطرق والراغبين في العنف قصد مواصلة الحرب⁽⁴²⁾.

(41) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 362-363، 365-369.

(42) ذكر ابن يوسف ما نصه حول هذه المحلة : «...قد قمنا ما عمل الحاج مصطفى بن متيشة في رمي محلة لأجل رحول الجزيرية ورحلوا وبقيت تلك الأخبية منصوبة فأمر الباشا علي ولده يونس رحمهما الله أن يجهز تلك المحلة بعسكر زواوة مقدار ألف زواوي ويرحل بها ويسير إلى أن ينزل الفحص ويمكث هناك لقصد دريد والهارب من عند عمه حسين باي بن علي باي فإذا سمعت الناس بالمحلة نازلة في الفحص قصدوها فبعث يونس إلى خوجة زواوة أن يحضر له ألف زواوي فلما جمع زواوة أعطاهم راتهم فأقاموا نفوسهم ودخلوا المحلة وجهز يونس نفسه فلما فرغ من شغله دخل المحلة ومعه الخيل ورحل وسار إلى أن نزل الفحص واتخذها دارا...» راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77-78. وذكر مؤلف "الكتاب الباشي" أن

ويبدو أن أهل القيروان استبشروا بالأخبار التي وصلتهم عن هذه المحلة المتواضعة التي تغيب عنها العسكر، واعتبروها لقمة سائغة قد تكسبهم فخرا داخل المجتمع ويستردون بها ما تبقى من هيبة مخدومهم وسلطته المهزوزة. ولهذا ألحوا على الباي وأولاده كي يرافقوهم لمباغثة هذه المحلة والاستيلاء عليها، والراجح أن بعض جنود زواوة وزعمائهم قد وعدوهم بعدم القتال وتسهيل مهمتهم في حالة قدوم سيدهم السابق أو أحد أبنائه. وأعتقد أن هذه الاتصالات المطمئنة هي التي شجعت " القرواة " على المطالبة بالخروج للقتال، ولم يقترحوا سفر العروش معهم لكي ينفردوا بهذا الانجاز العسكري السهل والمتأكد⁽⁴³⁾. ويظهر أن الباي لم يكن متحمسا لهذه المبادرة لاسيما أن يوم سمنجة مازال يؤرقه وجرحه لم يندمل بعد، ولعل تلك الحقيقة هي التي تفسر تردده واتخاذ قرارات متناقضة. فالرواية تذكر أنه وافق " القرواة " على مطلبهم وعيّن معهم ابنه علي باي، لكنه لم يتأخر عن أمرهم بالعودة كلما «...توسطوا الثانية...» بسبب الخوف من الهزيمة وعدم الثقة في قدراتهم القتالية خارج أسوار مدينتهم. وكان مشهد عودة «...القرواة راكبين على الخيل والبغال... » مخيبا لأمال الناس ومحبطا لعزائمهم ومثيرا لحماستهم خاصة أثناء المرة الثانية، ولذلك عقدوا عدة اجتماعات «...وأطلقوا ألسنتهم...» لانتقاد صناع القرار بدار الباي ولعلّهم نعتوهم بالضعف والخوف⁽⁴⁴⁾.

محلة بونس كان بها 2000 زواوي، بينما قدر أحد أعوان قنصلية فرنسا تلك القوة ما بين 3000 و4000 رجلا. راجع : ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 369. أنظر كذلك : ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 117-118؛ الإمام، 1980، ص 203-204؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 164, Janv.-Oct. 1925, p. 300.

(43) ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 369؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78.

(44) ابن يوسف، * مخ. 10868، ورقة 69، * مخ. 5249 ورقة 78؛ * مخ 5264، ورقة 194.

واضطرب البايع حسين إلى مراجعة موقفه قصد امتصاص الغضب الشعبي وحتى لا ينعث بالجن، لكنه حاول في الوقت ذاته دعم صفوفه باستتفار عروش جلاص وبعض عشائر دريد لأنه يعرف جيدا أن أهل البادية أكثر صبرا من "البلدية" على تحمل متاعب السفر والحرب. واستجاب أبناء جلاص لنداء سيدهم إذ «...قدموا عليه بأهلهم وأموالهم...» ما دام " القراوة " متحمسين للنزال، وقاد الأمير هذه الجموع المتنافرة «...بنفسه ومعه أخوه عامر باي ومسعود كاهية كاهية الباجية ومن معه من...» الصبايحية (45) وكانت معنويات البايع منهارة وهو يقصد السهل الذي نهبت فيه أمحالة منذ فترة قصيرة رغم تحمس الجموع الكثيرة التي كانت خلفه، وذكر ابن يوسف العارف بالحرب أنه «...سار من القيروان يقدم رجلا ويؤخر أخرى خائفا من هروب القوم عليه ويتركونه وحيدا...» (46). ويظهر أن الأمير الشاب يونس باي لم يكن أحسن حالا من خصمه لأن جنود زواوة يكتون عطفا خاصا لعم والده الذي خدموه لسنوات طويلة، ولعل ذلك ما يفسر سهولة انتصار البايع يوم 18 جمادى الثانية عام 1148 هـ/ 5 نوفمبر 1735م وفرحة "القراوة" وغيرهم عند استيلائهم على

(45) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78. تختلف رواية ابن عبد العزيز حول المشاركين في هذه المحلة وكيفية خروجها، حيث ذكر أن البايع حسين لما «...بلغه انصراف الجزيريين إلى بلادهم (...) أرسل إلى قبائل الأعراب يستنفرهم فاجتمع عليه منهم خلق كثير مثل الهمامة ونيفن (أي ونيفة) بجميع قبائلها وغيرهم وارتحل من القيروان فنزل العلم وخرج يونس بمحلة من الحضرة في عدد كبير من زواوة والمخازنية فنزل الفحص دافعا له عن الوصول إلى الحضرة فكتب المولى الأمير إلى مولانا أيده الله تعالى يأمره أن يخرج إليه لغزو يونس بمكانه من الفحص فخرج في أربعماية من أهل القيروان وهو بمكانه من العلم فترك ابنه المولى محمد باي بمكانه فيمن تخلف عن الغزو ردها لهم ورحل إلى يونس...» راجع : ابن عبد العزيز، مخ. 18666، ورقة 369.

(46) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78. أنظر أيضا : ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 111-112؛

Atlas de Tunisie, 1979, p. 6-7; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 150-153; Kassab A., Sethom H., 1981, p. 381-383.

المحلة «...بما فيها من المضارب والمدافع والآلات والأقوات...» ودخولهم "الأخبية" وفرار يونس مع مئات من فرسانه إلى الحاضرة (47).

وفتح هذا النصر الهزيل شهية جلّ أنصار "الصف الحسيني" رغم أنه لا يعتبر مؤشرا لتغيير المعادلة القائمة، لاسيما أن العسكر لم يشاركوا في القتال وكانوا يترقبون خصومهم بالحاضرة. لكن المهم أن الطريق صارت مفتوحة للتقدم نحو عاصمة الإيالة والظروف مناسبة لدخولها، نظرا لاستعداد غالب الكرغليين وكافة الذين أصابهم الجور الباشي لمؤازرة الباي وحيرة الناس أمام الشائعات المتناقضة. وأشرف الأمير علي باي على نقل الغنائم المتنوعة إلى القيروان، وكانت تلك العملية مصدر غبطة وتحمس للمقاومة بالنسبة لغالب سكان المدينة (48). ويبدو أن ما ذكره ابن عبد العزيز حول عودة حسين بن علي بمحلته إلى ناحية العلم ومسيرة نجله علي باي مع زواوة إليه لا أساس له من الصحة، لأن تلك الرحلة لا فائدة من ورائها عسكريا ما دام أولاده ومستشاروه مصممون على غزو تونس (49).

47) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 369. صور ابن يوسف تلك الحادثة استنادا إلى رواية أحد الصباحية بقوله : «...ولازال [أي الباي حسين] سائرا إلى أن وصل قريب المحلة ووقف حتى لحقت الناس ثم أن الصباحية ركضوا إلى المحلة ركضة واحدة فقال عامر باي القوم هربت يخبر في أخيه وكان يونس واقفا فوق ربوة عالية ينده الناس فهربت الخيل التي معه وأما زواوة لما تحققت أن الأمير حسين وصل إليهم تركوا محلّتهم وعرضوا الباي حسين وبأسوا يده. وهرب يونس قاصدا تونس فدخل الباي حسين ومن معه المحلة ودخل الباي حسين وطاق يونس ودخل من معه الأخبية وعمرها وفرح الناس فرحا عظيما...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in *R.T.*, n° 164, Janv.-Oct. 1925, p. 300.

48) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 369؛ ابن يوسف، مخ 5264، ورقة 207-208؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 117-118؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in *R.T.*, n° 164, Janv.-Oct. 1925, p. 295-297.

49) ذكر هذا المؤرخ ما نصه : «...رجع المولى الأمير (أي حسين بن علي) إلى العلم وتخلف بعده مولانا حتى أقل جميع ما في المحلة وانحازت إليه زواوة بأسرهم وهم ألفا مقاتل فرجع بهم إلى أبيه ثم تحدثوا في غزو تونس لما رأوا من كثرة جموعهم ولما أتيح لهم من الظفر على يونس...». راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 369.

والمهم أن التردد غلب على الاجتماع الموسع الذي عقده البايع حسين مع حاشيته وحضره شيوخ العروش، وقدم زعماء عشائر دريد بطريقتهم خطة توائم بين تحمس عامة الناس وخوف صناع القرار. فقد اقترحوا على سيدهم التقدم نحو مشارف تونس حتى يقصده مؤيدوه والفارون من ظلم ابن أخيه علي باشا، وهو ما يؤدي في الأخير حسب تصورهم الساذج إلى دخول العاصمة بدون قتال وهروب خصمه اللدود من قصر باردو⁽⁵⁰⁾. لكن الحذر والحيلة دفعا البايع إلى التعلل بطول الزمن المتوقع وعدم امتلاكه لما يلزم من المال والمثونة «..لهذه المحال...»، علما أنه «..إذا جاعت الناس وملّت من طول المقام هربت...» حسبما رواه ابن يوسف. ويظهر أن زعماء البدو استاءوا من ذلك الردّ السلبي حتى أن بعضهم قالوا لسلطانهم الحائر : «...حيث تمكنت بهذه المحلة فارجع إلى القيروان حتى يشتد عضدك (...). ويأبى الله إلا ما يريد...»⁽⁵¹⁾.

ويظهر أن صناع القرار القابعيين بسهل الفحص لم يتفقوا في البداية على الخطوة اللاحقة، رغم انضمام حوالي ألف زواوي إليهم وملائمة الظروف العامة. وطرحت في الأثناء مسألة الإغارة على عروش دريد بناحية تستور حينما تحالف زعيمها نصر بالضياف مع علي باشا، لاسيما أن تلك العملية قد تؤدي إلى "أخذ النجع" وأسر الأمير يونس باي⁽⁵²⁾. وكان هذا الاقتراح سديدا

(50) لخص مؤلف كتاب "المشرح" ذلك بقوله : «...ولما اجتمع الأمير ومن معه من دريد فتشاوروا فيما بينهم قالوا له دريد حيث أخذت هذه المحلة ونصروك زواوة وغيرهم ارحل من هنا وانزل قريبا من تونس وامكث بموضعك ولا تقصد تونس فإن الهارب من مدينة تونس كل يوم يأتيك عسكر وغيرهم ومخازنية فإذا سمع البايعون هربوا إليك حتى لا يبقى مع علي باشا إلا القليل فعندها يهرب وتدخل بلادك من غير قاتل ولا مقتول...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78.

(51) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78.

(52) تجدر الإشارة إلى أن شيوخ دريد الذين تخلوا في سيدي الناصر عن خدمة البايع حسين وغادروا نواحي القيروان «...بعثوا لعلي باشا وقالوا له إن خدمتنا خدمناك فبعث إليهم ولده يونس يأتي بهم إلى تونس...»، ويضيف ابن يوسف أنه «...لما وصل يونس إلى نصر بن أبي الضياف فرحوا به واتفقوا على الرحيل معه...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78.

من الوجهة العسكرية كي لا تبلغ تلك المجموعة الكبيرة الحاضرة ويتقوى بها جانب الباشا، لكن المصادر قدمت موقفين متناقضين للباي حسين. فقد ذكر ابن يوسف أن الباي لم يأخذ كلام شيوخ دريد الذين معه على محمل الجد وتخوف من خيانتهم خاصة أن ولي عهده محمد باي كان مشدودا إلى العاصمة، ولذلك صار «...يتعلل لهم وفهموا منه أنه قرأ فيهم النقص فسكتوا عليه وقالوا لا شدة فيمن رخاه الله ولا نصر لمن خذله الله...»⁽⁵³⁾. بينما قدم ابن عبد العزيز وجهاً مغايراً للباي الذي تبنى حسب زعمه فكرة الإغارة على النجع عند وصوله إلى تستور، لكي «...يصددهم عن الوصول إلى الحضرة...» ويلقي القبض على زعمائهم مثلاً القايد محمد بن عثمان الحسني وسليمان بن احمد المناعي. لكن ابنه محمد الرشيد باي «...خالفه (...) وصمم على قصد الحضرة قبل وصولهم إليها...» نزولا عند رغبة مستشاره المدعو محمد الشافعي، واستجاب «...المولى الأمير على كره منه...» لذلك الاقتراح⁽⁵⁴⁾.

ويبدو أن مشهد الحوار والتردد الذي سبق خروج المحلة من القيروان تكرر بناحية الفحص لأن الحركيين أصروا على التصعيد حتى استجاب الباي في الأخير لطلبهم ووافقهم «...على قصد تونس والنزول عليها...»، وتذكر الرواية أن أهل الحاضرة اهتزوا «...فرحا به وبرجوعه لما يعلمون من أمنه وعدله وقد أخافهم علي باشا بالقتل والسجن وأخذ المال مخازني أو بلدي أو غيره...»⁽⁵⁵⁾. وكانت تلك الرحلة في الحقيقة مجازفة لأن دخول الحاضرة لم يكن دائما أمرا هينا طيلة العهد العثماني، والمهم أن الباي حسين تقدم في أواخر شهر نوفمبر 1735م مع تلك الجموع مرورا بغدير السلطان حتى «...نزل

(53) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78.

(54) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 369-370.

(55) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370-369. راجع أيضا :

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 165, mai 1926, p. 357-358.

كرايم تونس...» يوم الاثنين السابع من شهر رجب/23 نوفمبر 1735م «...وصارت محلته مقابلة...» للضاحية الجنوبية وقصر باردو⁽⁵⁶⁾. وأثارت رؤية تونس وقصبتها وأسوار باردو طيلة أربعة أيام ذكريات الماضي وشجون الحاضر، خاصة لدى الباي وأولاده وأعيان المخزن الذين كانوا جميعا في وضع لا يحسدون عليه ما دامت الأمور غامضة ومفتوحة على جميع الاحتمالات.

وتعمّد ابن يوسف التقليل من استعدادات وتحركات علي باشا وحاشيته، ولعل ذلك يرجع إلى المعاملة السيئة التي تعرض لها أبناء جلده بعد عام 1740م. فقد ألمح إلى جزع سيّد قصر باردو وغياب خطة عملية لديه لمواجهة خصومه وحماية الحاضرة في حالة الهجوم عليها، رغم اعترافه بكون "أخبية" محلة الشتاء دخلها «...بعض العسكر وهي دايرة بالفسقية تترجى في يونس حتى يرجع بمحلة زواوة ثم يسافر إلى الجريد...»⁽⁵⁷⁾. وذهب إلى أن الباشا عزم على مغادرة قصره نحو الجزائر حينما بلغ عمّه "كرايم تونس"، لكن خزناره مصطفى بن متيشة أنفذ الموقف إذ نصحه بالصبر وزيادة راتب العسكر واستنفار الكرغليين القاطنين خارج العاصمة ريثما يعود ابنه يونس مع فرسان دريد⁽⁵⁸⁾. ولم يتأخر الباشا عن تنفيذ تلك الخطة التي غيّرت موازين

(56) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 78؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370. تعني عبارة "الكرايم" أو "كرايم تونس" النواحي الواقعة على مشارف العاصمة أي التي توجد في محيط لا يتعدى عرضه تقريبا فرسخين عن وسط العاصمة.

(57) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 78. راجع أيضا : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370؛ إبراهيم السعداوي، "كراغلة إيالة تونس في النصف الأول للقرن الثامن عشر"، أعمال المؤتمر العاشر للدراسات العثمانية حول : الدور الاقتصادي والاجتماعي للأقليات في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، تونس، أوت 2004.

(58) جاء في روايته ما نصه : «...ولما نزل الأمير حسين الكرايم أراد علي باشا أن يهرب بالليل وحضر بغاله وحمل أحماله وعمل على الهروب فقال له الحاج مصطفى ابن متيشة وغيره إلى أين تهرب البر ما يسعك والبحر ما يسعك وما يحملك وصارت الناس كلها لك أعداء فإذا خرجت من هنا أول من يسمع بك من الأعراس يتعرض لك ويأخذك أسيرا ويوصلك إلى عمك فيقتلك ويقتل

القوى لفائدته رغم تغيب وليّ عهده، لأن زيادة ناصريين في الراتب ألهمت حماسة العسكر الذين «...أطلقوا ألسنتهم بشكر الباشا...». ولّى «...أولاد البلديات...» نداه إذ «...جاءوا عن عجل (...) وقعدوا في الأبواب...»، واستتفر حوانب الترك وكافة الجنود الانكشاريين المرشحين للسفر بمحلة الشتاء⁽⁵⁹⁾. وتمت المواجهة الأولى بين جيش الباشا والجموع التي يقودها عمّه بناحية الزهروني جنوب غرب العاصمة، وكان القتال شديدا بين الجانبين إذ تواصل حتى العصر خاصة بين فرق الفرسان. ولم يقدر أي طرف على التقدم أو حسم المعركة لفائدته رغم استخدام الباشا لسلاح المدفعية، نظرا لاستماتة الجميع وهطول المطر الذي حول الميدان إلى أوحال⁽⁶⁰⁾.

وقيّم مستشارو الباي والأعيان الذين معه المعركة ايجابيا أثناء اجتماعهم وارتأوا ضرورة إعادة انتشارهم، لأنهم اقتنعوا بعدم القدرة على اقتحام الحاضرة من تلك "الدار" مادامت مدافع أبراج الجبل الأخضر وباردو تقابلهم. واتفقوا على الرحيل ليلا والنزول «...قبلة تونس قرب القنطرة وواد مليون...»، لاسيما أن جواسيسهم أكدوا لهم تعاطف الكراغلة وبعض أحياء العاصمة مع

أولادك وعيالك وأصحابك ولكن الأصلح أن تصبر في موضعك وأعط للعسكر زوج نواصر طارقي غدا على الصباح ولأمر أكابر العسكر أن يقعدوا على الأبواب وابعث غدا إلى أولاد الكويات يأتوك على عجل وفرقهم على الأبواب ليلا ونهارا إلى أن يأتي سيدي يونس بطلعته المباركة الميمونة...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 78.

(59) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 78؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in *R.T.*, n° 164, Janv.-Oct. 1925, p. 298-300.

(60) صور ابن يوسف تلك المواجهة بقوله : «...ركب الأمير حسين باي وركبت معه قومه وسار إلى أن وصل سيدي الزهروني وخرج العسكر وعلي باشا ومعهم المدافع وركبت الخيل والتفت الخيل بالخيول ومات من هنا ومن هناك والباشا علي والعسكر واقفون من قريب الزهروني والمدفع ساعة يتكلم والباي حسين ما قدر أن يتقدم وكذلك علي باشا إلى أن صار وقت العصر فرجع ذلك ورجع علي باشا ودخل العسكر محلته ونزلت المطر وكثر الوحل ولما رأّت الكوارغلية فعل الأمير حسين وأنه لم يتقدم ولم يصدم عليهم ولم يقرب منهم ولو تقدم لأسرعوا إليه ونصروه ولكن لم يرد الله رجوعه إلى تونس آيست منه وعضت أناملها...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 78.

سيّدهم واستعدادهم لمؤازرته (61). واقتنع الباي بالخطّة الجديدة ولعله كان ينوي حسم الموقف قبل وصول الإمدادات إلى خصمه، والمهمّ أنّه ارتحل بجموعه «...ونزل قبلة تونس قريب وادي مليون...» أي ناحية رادس. والتزم «...كوارغلية البلديات من سليمان إلى الحمامات...» بوعودهم، حيث «...رفعوا إلى حسين باي المكاحل والغلة والهديات...» حسبما نقله الرواة (62).

ولم يتأخر علي باشا عن الانتقال إلى تلك الضاحية الجنوبية الشرقية للدفاع عن عقر داره، واستطاع صدّ هجمات خصومه المتكررة طيلة يومين متتاليين رغم ضراوة القتال وخيانة بعض أتباعه (مثال جاب الله بوفردة) يوم "واقعة رادس" (63). ولخص ابن يوسف تلك المواجهات الدامية بقوله : «...وخرج العسكر من تونس إلى أن قرب من محلة عمه حسين ووقف وشالت الخيل إلى قريب العصر ورجع كل واحد إلى مكانه وهرب إلى الأمير حسين بعض العسكر ومن الغد لما تقابلت الناس هرب جاب الله بوفردة (...) وقصد قوم حسين باي (...) وهجم بعض خيل المرحوم حسين بن علي فرفعوا قوم علي باشا وهربوا راجعين إلى تونس ووقع الخوف في قلوب عسكر علي باشا والمحب للأمير حسين عمل على الهروب إليه ولاكن لم يرد الله...» (64).

61) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 78؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370.

62) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 78.

63) انضم المدعو جاب الله بوفردة إلى خدمة المخزن منذ عهد رمضان باي المرادي (1696-1699)، وهو الذي قام بتدبير خروج مراد باي الثالث (1699-1702) من سجن سوسة وانتقاله إلى جبل وسلات سنة 1699. وبقي في خدمة المخزن في عهد الباي حسين بن علي، وله علاقة وثيقة مع علي باشا خاصة قبل عام 1728. راجع : ابن يوسف، مخ 10868 ورقة 31.

64) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 78-79؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370-376؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 164, Janv.-Oct. 1925, p. 300.

وكانت كل المؤشرات الميدانية ايجابية بالنسبة "إلى صف الحسيني" رغم حذر الباي وتردده، لأن قسما متزايدا من أهل الحاضرة رجحوا إمكانية استرجاع سيدهم لعرشه. ويبدو أن أنصار الأمير في حومة باب عليوة أو «...كثير من أعيان البلد ورؤسايها....» قد راسلوه، وصاغوا خطة لتسهيل عملية اقتحام العاصمة. كما طالبوه بالقدوم إليهم أو إرسال زواوة مع أحد أبنائه، وتعهدوا له بفتح أبواب حيّهم ونصرته على دخول المدينة بعد تكسير أبوابها أو إحراقها⁽⁶⁵⁾. وتعامل الباي بحذر كبير مع هذا العرض المغربي لأنه تخوف من ردة فعل الداوي والعسكر المتعاطفين مع ابن أخيه، ودفعته تلك الهواجس إلى تعديل تلك الخطة المستعجلة دون التشاور مع زعماء الحي. وكلف أحد مماليكه مع فرقة من زواوة بتلك المهمة الخطيرة أثناء الليل، لكنها تحولت في الأخير إلى نكسة حقيقية حينما تأكد أهل باب عليوة من عدم حضور الباي أو نجله. ولخص صاحب كتاب "المشرع الملكي" تلك العملية الفاشلة بقوله : «...لمّا طاح الليل (...) خرجت زواوة ومن معهم من طالبي تونس وخرج معهم خليل آغة إلى أن وصلوا باب عليوة ولما رأتهم العسة التي فوق الباب هربت فكسروا الباب ودخلوا وقامت النساء تزغرت عليهم وهرعت إليهم أهل الربط كلهم وصاروا ينشدون أين الباي حسين أو سيدي محمد أو سيدي علي فيقول لهم زواوة هاهو خليل آغة واقف عند الباب فإذا سمع الرجال بأن الباي حسين لم يأت معهم رجعوا إلى ديارهم وأغلقوا أبوابهم وكثيرهم صار يقاتل في زواوة

(65) ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 370. ذكر مؤلف "المشرع الملكي" ما نصه : «...ولما رأّت بعض المحبين للأمير حسين من ربط باب عليوة تأخر الأمير حسين بعثوا إليه وقالوا له ابعث ولدك والأولى أنت بيدك ومعه زواوة ومن تعتمد عليه وادخل الربط فلا يعرضك أحد والناس كلهم منتظرون لقدمك فإذا دخلت الربط فما عليك في المدينة تكسروا أبوابها ونحرقها وتدخل إلى بلادك فإذا سمع بك ابن أخيك أنك ملكت المدينة هرب...». ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 79.

وولت أصحاب العسّة وقابلوهم بالرصاص حتى أخرجوهم من الباب وولوا منهزمين خائبين إلى من بعثهم....» (66).

وكانت تلك الحادثة بادرة سيئة بالنسبة "إلى قراوة" وكافة المقيمين في مخيم الباي، لاسيما أن العسكر بحثوا في الصباح عن زواوة وأعدموا من وجدهم داخل قباب الأضرحة والزوايا. وانتقد الفارون موقف الباي وحملوه مسؤولية تلك النهاية الحزينة، وأثرت تلك الأخبار السيئة على معنويات الأمير حسين وأتباعه. بينما بادر الباشا في تلك الصبيحة إلى دعم حماية المدينة بواسطة تركيز بعض "المدافعية" بمدخل باب عليوة، وانتقل مع جيشه إلى أطراف غابة الزيتون حتى يؤكد لخصومه استعدادده لخوض المعركة الفاصلة⁽⁶⁷⁾. لكن عودة يونس باي في ذلك اليوم مع فرسان دريد الذين نزلوا بناحية الحريرية غيرت موازين القوى بين الطرفين، وأدى التفوق البشري والمعنوي الذي أضحي عليه "الصف الباشي" إلى إنهاء حالة الترقب والتردد. وذكر ابن عبد العزيز أن فرسان دريد لم يوقفوا من الغد في مواجهة «...خيول المولى الأمير....»، حيث ردهم على أعقابهم وألحقوا بهم هزيمة نكراء. لكن الباي وأولاده ارتأوا ضرورة «...عبور نهر مليان والنزول بعدوته القبلية ليكون النهر خندقا بينهم وبين العدو....»، ولذلك «...باتوا ليلتهم تلك يعبرون على القنطرة وضربوا مضاربهم على حافة النهر....» (68).

ويبدو أن الباي حسين اقتنع بالهزيمة في اليوم الموالي قبل خوض المعركة، ولعل ذلك ما يفسر فراره من أرض الميدان تاركا وراءه محلته والعشائر التي ساندته. وترافقت هذه النكسة الثانية مع فوضى كبيرة خاصة

(66) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 79.

(67) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 79.

(68) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370.

بالنسبة للعشائر التي كانت تجتاز «...الوادي بالغنم...»، وهو ما ساعد القوات الباشية على التقدم قليلا (69). وصوّر ابن يوسف ذلك المشهد الحزين بقوله : «...لما رأى الباي حسين تقدم الباشا ومن معه قبل رأس فرسه إلى نحو القبلة وسار فقال له أصحابه إلى أين موّلي وتترك هذه العباد وهم مشغولون بتقطيع سعيهم من الوادي فقال لهم نطلع إلى رأس تلك الربوة ونقف هناك وسار ولما غاب عن أعين الناس سار ولم يلتفت إلى أحد فصرخ صارخ أن الباي هرب فلما سمعت الناس هربت وتركت سعيها وهرب من في المحلة وتركوها خالية ليس فيها أحد وصارت تلك الأغنام التي لا يحصى عددها إلا الله هاملة فلما رأى الباشا علي (...) أن القوم كلها هربت تقدم إلى المحلة وهجم عليها من معه من العسكر فقطعوا أخبيتها وهجم كل من في ذلك المحال على تلك الأغنام والبقر والبهيم وغيرها...» (70).

وتفرقت الجموع "الحسينية" المتعبة بعد أن تبخرت آمالها وأحلامها، والتجأ بعض أفراد زواوة إلى الأرياف واختفوا داخل العروش والقرى. لكن ابن يوسف لم يقدم تفاصيل كثيرة حول رحلة العودة المضنية من أطراف تونس إلى القيروان، بينما ذكر ابن عبد العزيز أن الانسحاب تم في اتجاهات متعددة خوفا من الملاحقة (71). فقد سلك الباي مع أتباعه ونجله محمود طريق زغوان، بينما

69) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 79؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 164, Janv.-Oct. 1925, p. 300-301.

70) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 70، مخ. 5249 ورقة 79. ذكر مؤلف "الكتاب الباشي" ما نصه : «...وما استتموا العبور حتى أغار عليهم يونس بجنوده من ضحى الغد فانشمرت الأعراب وانهزمت وتركوا حلهم ومواشيهم فانتهبت وامتألت أيدي العساكر ودرى ومن معهم من المواشي والأمتعة والأسلاب حتى بيعت الشاة بثلاثة ناصرية...». راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370.

71) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370-371.

اتبع ولداه محمد باي وعلي باي طريق الساحل. واجتمعوا مجددا بعد أن تجاوزوا خنقة غابة الحمامات، لكنهم اختلفوا حينما «...تفاوضوا في محل منجاتهم...» لأن عامر باي شكك في قبول "القراوة" لهم «...بعد هذه الوقعة...». ويبدو أن الأمير علي باي عارض ذلك الموقف المنشأ وفنده نظرا لمعرفته «...بأهل القيروان ونياتهم...»، واستطاع في الأخير إقناع والده وإخوته بالعودة إلى عاصمة الأغلبية (72).

ويرى مؤلف "المشرع الملكي" أن «...الأمير حسين (...) لما سار من المحلة (...) لم يلتفت ولم يقف ولا نزل ولحقته أصحابه ثواني وثالث إلى أن وصلوا إلى القيروان...»، بينما أشار صاحب "الكتاب الباشي" إلى مخاوف الباي وحرصه على التأكد من صحة موقف القيروانيين وخروجهم لاستقباله على مشارف مدينتهم (73). فقد أمر نجله علي باي «...لمّا دنوا منها (...) أن يبعث من يخبرهم بقدومه ليتلقوه ففعل ولما أبطل الرسول أمره بأن يبعث غيره ولم يزل يأمره ببعث رسول بعد رسول إلى أن بعث إليهم اثني عشر رسولا خوفا من أن لا يقبلوه بعد هذه الهزيمة...»، لكن اللافت للانتباه أنه «...لم يعد إليه أحد من الرسل...» حتى بلوغهم ناحية ذراع التمار (74). ولعل ذلك التأخير الواضح يعكس في الواقع اختلاف أعيان الناس وتردد النخبة العالمية بالقيروان حول صياغة موقف موحد، خصوصا أن عملاء الباشا كانوا يدفعون نحو القطيعة مع الباي المهزوم وأولاده. والراجح أن "القراوة" أصيبوا بخيبة أمل

(72) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 370-371. راجع أيضا : Peyssonnel, 1838, T. 1, p. 43, 86-87; 114; Frank L., 1979, p. 16-17, 28-29.

(73) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371.

(74) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371.

كبيرة رغم علامات الفرحة عند استقبالهم للعائدين، لاسيما أن الباي حسين دخل مدينتهم مع حاشيته وحرسه «...في أعظم ما يكون من الهوان...» (75).

وبالتالي فإن العناصر الباشية استفادت من ذلك الوضع الطارئ، ولم يتردد أولاد الغرياني وبطانتهم في حبك مؤامرتهم والتخطيط لتسليم المدينة للعدو مثلما بيناه سابقا. كما أن غالب الذين لم يبيعوا علي باشا تجاوبوا بسرعة مع العفو المشروط الذي أصدره لفائدتهم، حيث عاد «...كثيرهم (...) إلى تونس أو غيرها لأجل عياله وأولاده ووطنه...» (76). ولكن ما هو دور القيروان في الصراع الدائر آنذاك بوسط الإيالة ؟

ب - القيروان و دورها الفاعل في الصراع بالسباسب السفلى و منطقة الساحل =

ساهمت أزمة المخزن بعد سنة 1735 م في تعميق الخلافات الموروثة وتأجيج الأحقاد الدفينة بوسط البلاد، حيث تبلورت مواقف متناقضة داخل عروش وبلدات السباسب السفلى ومنطقة الساحل. وكان الواقع أكثر تعقيدا من التقسيم المبسط والخطئ أحيانا الذي صاغه الإخباريون، نظرا لعمق الأزمة

(75) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79؛ مخ. 5264، ورقة 207-208. ذكر ابن عبد العزيز أن حسين بن علي «...لما بلغ النزاع ولم يعد إليه أحد من الرسل ارتاب وقال أين كلامك قال (أي ابنه علي باي) لا عليك الآن ترى فلم يلبث أن طلع عليه أهل القيروان قد خرجوا إليه بأسرهم فرحين بمقدمه فلما وصلوا إليه قالوا له حيث رجعت إلينا سالما أنت وأبنائك وأبنائنا فكل شيء بعد ذلك جلل وإنما هي مضاربهم عادت إليهم ودخلوا بها البلد...». راجع : ابن عبد العزيز، مخ. 18666، ورقة 371.

(76) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 79. قال ابن يوسف بنفس الصفحة في سياق حديثه عن ذلك العفو : «...وأراد الباشا علي هدم ديوانهم (أي زواوة) وعزل خوجتهم وعول على أنه يبطل عسكر زواوة ولا بقي يتبعه زواوي فرجع عليه ولده يونس والحاج مصطفى بن متيше خزندار عند الباشا علي ولما كثرت الشكايات عند الباشا والتضرع إليه بالذي رجع من جرة عمه حسين قال الباشا من بايعني وقبل يدي فلا شفاعة فيه وأما الذي لم يقبل يدي ولم يبايعني فما عليه حرج ولا نعاقيه وهي حيلة منه لكي يسمع بهذا الكلام من هو مع عمه فيرجع إلى تونس ولا يخاف من أحد...».

السياسية وحدة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المطروحة. والمهم أن المتعاطفين مع قضية الباي تغلبوا داخل سوسة والمنستير والمهدية وبلدات أخرى، في حين تجاوزت أغلبية الناس بعدة قرى مع مشروع علي باشا مثلا جمّال وأكودة. لكن الموقف لم يحسم بين القوى الفاعلة في بعض الأماكن مثلا قرية مساكن، بينما انضمت "البلديات" أول الأمر إلى "الصفّ الحسيني" مثلا بوخلالة والفج والعدام والتجيبين⁽⁷⁷⁾. ولئن اتفقت المصادر حول الخطوط الكبرى للصراع وأهم المواقع التي تمت بالمجالات المتاخمة للقيروان، فإنها اختلفت كثيرا في تأريخ تلك الأحداث وترتيبها ونقل مجرياتها نظرا لتعدد الرواة اختلاف انتماءاتهم. فما هي ملامح دور أهل القيروان ومجالها في مجريات ذلك الصراع بالمناطق الوسطى للإيالة ؟

- الغارة اليانسة على قرية جمّال :

راقب أعيان القيروان عن كثب الأوضاع داخل المجالات المجاورة، لاسيما بجهة الساحل المعروفة بارتفاع كثافتها السكانية وحدة تناقضاتها. ويظهر أنهم وطّدوا علاقاتهم مع شيوخ البلدات والمجموعات "الحسينية"، وهو ما سهّل عليهم متابعة أخبار المنطقة ومستجداتها وضبط أهداف عسكرية. وانشغلوا منذ البداية بموضوع جمّال التي كانت معروفة بعدائها الدفين للنظام الحسيني، نظرا لتحالف وجهائها مع علي باشا منذ سنة 1728 مثلا أولاد بن خضر⁽⁷⁸⁾. وانتهاز القيروانيون ذلك الظرف لتصفية حساباتهم مع خصومهم إذ اعتبروا تلك القرية

(77) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 373؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113؛ Peyssonnel, 1838, T. 1, p. 31-35, 105-108; Despois J., *La Tunisie et ses régions*, A. Colin, Paris, 1961, p. 94-101.

(78) ابي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 110، 113؛ مقديش، 1988، ج 1 ص 112؛ Peyssonnel, 1838, T. 1, p. 35-36; Pellissier E., 1980, p. 86; Ganiage J., 1968, p. 126-129, 149; Despois J., 1955, p. 181-182, 292; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 162-165; Kassab A., Sethom H., 1981, p. 284-289.

المسورة بمثابة الخطر الأول على مشروعاتهم لأنها شكلت في الواقع قلعة للدعاية الباشية، ولعلمهم تخوفوا من تأثيرها السلبي على بقية مداسر الساحل. وذكر ابن يوسف «...أن أهل القيروان جاءوا إلى الباي حسين وقالوا له نريد أن نأخذ قرية جمّال لأنها لم تنافق معنا وهي لنا ولك من أكبر الأعداء...»، ثم وسعوا خطتهم قصد «...أخذ من لم ينافق... معهم «...من جميع من في الساحل...» (79).

وتفيد الرواية أن الباي استجاب بسرعة لمقترح القيروانيين الذي يتساق مع خطته العامة، لأنه كان يطمح إلى تحويل كامل وسط الإيالة إلى مجال "حسيني" خال من أية معارضة سياسية معلنة. والراجح أنهم استعدوا جيدا لهذه الغارة القريبة وجندوا لها الكثير من عامة الناس، وكانوا واثقين من الانتصار رغم أن الأخبار التي وصلتهم تحدثت عن الخطة الدفاعية التي اعتمدها أهل تلك القرية. وتنعدم الأخبار حول ظروف الرحلة من القيروان إلى ناحية جمّال، ويبدو أن الأمير قاد تلك الجموع أثناء الليل حتى يستطيعوا مباغته عدوهم عند طلوع الفجر (80). ولا نملك أية تفاصيل حول الصدمة الأولى ومجرياتها، واكتفى ابن يوسف بالإشارة إلى شدة مقاومة أهل جمّال وصدهم للهجمات المتعاقبة طيلة اليوم الأول. وفوجئ الباي وضباطه بصمود "الجمّالين" واضطروا إلى تعديل خططهم العسكرية، حيث اتفقوا على ضرورة قصفهم بالمدافع. ولهذا «...بعث الباي حسين إلى سوسه أن يرسلوا له المدفع بوسبحة فبعثوه إليه مع الكور...» (81).

(79) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77.

(80) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 373؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113.

(81) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77.

لكن القصف المتواصل للقرية لم يغيّر كثيرا الوضع الميداني، ولعل جواسيس الباي لم ينجحوا في رصد متاريس المقاومة وتحصيناتها. وأثر صمود أهل جمال وضراوة القتال على معنويات المهاجمين لاسيما عند مشاهدتهم الجرحى وبعض القتلى، واضطرب القيروانيون إثر مقتل الحاج علي بن حمامة حينما «...أخذ السنجق وتقدم به إلى أن ركزه في البحيرة...»⁽⁸²⁾. وكانت وفاة ذلك الزعيم ضربة قاسمة بالنسبة للجميع حيث «...أخذت القراوة في التقهقر والرجوع...»، ولعل ذلك ما دفع حسين بن علي إلى إنهاء القتال من جانب واحد والعودة مع أنصاره خائبين إلى القيروان⁽⁸³⁾. وكان وقع هذا الفشل العسكري أمام جمال قاسيا على الباي وأولاده وجميع حلفائهم، كما يعتبر وصمة عار خاصة بالنسبة "للقراوة" وفرسان جلاص الذين انهزموا أمام "بياعة الزيت" كما يقال في ذلك الوقت. والراجح أن صنّاع القرار في عاصمة الأغلبة اقتنعوا بضرورة مراجعة حساباتهم وتعديل مشاريعهم، لأن الواقع لا يتناغم مع الصورة اللامعة التي رسموها لأنفسهم. واستوعب علي باشا الدرس من معركة جمال إذ وزع عددا من الجنود على قرى الساحل الباشية لدعم صمودها، وفي هذا الإطار عين «...علي اليميني بأكودة وجعفر ءاغا بالقلعة الصغيرة ورتب جند مساكن وجندا بزاوية سوسة...» وكلف القايد محمد بن خضر بقرية جمال «...وضم إليه عمل سوسة وعمل المنستير معا...»⁽⁸⁴⁾.

(82) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77.

(83) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 69، مخ. 5249 ورقة 77. ذكر مؤلف "الكتاب الباشي" أن الباي حسين «...غزا جمالا فيمن عنده من الجند والعرب وأهل القيروان...» إثر عودته من مجال النمامشة، حيث «...قاتلها يوما واحدا من الصباح إلى المساء حتى أشرف على أخذها ثم ألقع عنها ورجع إلى القيروان...». راجع: ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 373.

(84) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 376.

- الهجوم على القلعة الصغرى وأكودة :

كان غالب سكان القريتين محسوبين منذ سنة 1728 على "الصف الباشي"، وأضحوا على صلة قوية مع سلطات قصر باردو بعد موقعة سمنجة. ونسق شيوخ البلديتين مواقفهم وتحركاتهم مع زعماء المداشر المناهضة "للصف الحسيني" (مثال زاوية سوسة وجمال)، والراجح أنهم استعدوا للدفاع عن أنفسهم ما داموا ضمن الأهداف المتوقعة لأهل القيروان وضيوهم. وهناك اختلاف حول الذي قاد الهجوم على القريتين إذ أسنده البعض إلى الباي حسين، بينما تقيد بعض الروايات أن أولاده محمد باي وعلي باي هما اللذين أشرفا على العمليتين⁽⁸⁵⁾. والمهم أن "القرارة" وأبناء جلاص شكلوا تقريبا في أكتوبر 1736 العمود الفقري للغارتين، والراجح أنهم أحيوا ليلهم بالمسير كعادتهم وراء سلطانهم مرورا بناحية سيدي الهاني. وكانوا مصرين هذه المرة على رفع التحدي وتحقيق نصر عسكري لمحو مخلفات موقعة جمال، لكن أخبار "الغزوة" تسربت إلى أهل القرية الذين بادر بعضهم إلى إخلاء منازلهم والاختفاء داخل "السواني" تحسبا لمفاجآت القتال. وذكر شاهد عيان أن الباي ومن معه فرضوا حصارا شديدا على القرية المذكورة التي اختار جلّ أهلها المقاومة، ولعل علي باشا طالبهم بعدم الاستسلام وقدم لهم وعودا بالنجدة. ولذلك اضطر الباي وأنصاره في الأخير إلى رفع الحصار عنها وعادوا أدرجهم إلى القيروان دون أن «...يقضوا شيئا...» حسب رواية ابن يوسف. واستطاع "القلاعة" أسر

(85) ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 373؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113.
Chater K., *Insurrection et répression dans la Tunisie du XIXe siècle : La Mehalla de Zarrouk au Sahel* (1864), Tunis 1978, p. 16-18, 20-21, 27-28; Kassab A., Sethom H., 1981, p. 286-290; Despois J., 1955, p. 180-182, 292, 520; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 45-46, 161.

بعض الجنود الذين تأخروا وسط السواني، ونقلوهم بسرعة إلى قصر باردو علما أن الباي لم يحاول تخليصهم⁽⁸⁶⁾.

وقدم ابن عبد العزيز رواية مغايرة تماما حول هذه الغارة غير الموفقة، وذكر أنها تمت نتيجة إلهام الأمير محمد باي المكلف آنذاك بجهة الساحل. واتجه جيش القيروانيين نحو مدينة سوسة بقيادة علي باي، وكادت الأخطاء الإستراتيجية أن تتسبب في كارثة عسكرية "للصفّ الحسيني". فقد كلف محمد باي فرق الخيالة بمهاجمة أحياء المثاليث حول جمال، بينما ترك شقيقه علي باي محله خارج أسوار سوسة دون أية حماية⁽⁸⁷⁾. واستغل جنود الباشا تلك الفرصة الثمينة إذ هجموا على المحلة عند الصباح، وكانت الصدمة كبيرة خاصة أن أبواب المدينة كانت مغلقة. وبالغ هذا المؤرخ كعادته في إبراز دور سيده علي باي مع خيرة فرسانه في ذلك اليوم : فقد واجهوا أول الأمر خصومهم بكل شجاعة رغم قلة عددهم، ثم استطاعوا فيما بعد أن يحولوا النكسة إلى انتصار حينما اندس بعض الفرسان وسط صفوف أعدائهم قبل الانقضاض عليهم⁽⁸⁸⁾. وصور صاحب "الكتاب الباشي" حالة ارتباك العدو بقوله :

(86) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 89؛

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 165, mai 1926, p. 359-360.

(87) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 376-377.

(88) لخص ابن عبد العزيز بطولة سيده علي باي حينما علم بالهجوم على محله بقوله : «...خرج فيمن كان معه وخرج أخوه المولى محمد باي فوقف بظاهر البلد وتعرض مولانا في نحر العدو بدافعهم فاستبطن أكثر خيله مسيل ماء هنالك وسار هو مستعليا ومعه قليل من الفرسان ورجالة القيروان فأجهض العدو بالرمي وتكاثروا عليه فألوى عنانه فارا إلى البلد وأدركه العدو يتخطفون الرجال حواليه ودخل خيله الذين استبطنوا مسيل الماء في غمار العدو ولم يشعروا بهم ودخل المولى (...). محمد باي البلد ونزل أهل سوسة في أعالي السور هربا إلى بيوتهم فلما رأى مولانا نصره الله تعالى شناعة تلك الهزيمة سمت به همته العالية وتحركت حميته فنأدى في أصحابه بالكرة وألوى عنانه نحو العدو وهم ألوف ولم يبلغ عدد من معه من الفرسان العشرة فلما صدقهم الحملة قصروا عن شأوهم وأحجموا فلما رأى ذلك من دخل في غمارهم من أصحابه ثابت إليهم نفوسهم فضرب كل واحد منهم من يليه من العدو...». راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 377.

«...فظنت المخازنية منهم أن العرب غدروا بهم وظن العرب أن المخازنية غدرت بهم فسقط في أيديهم جميعا وكانت هزيمتهم فولوا لا يلوي أحد منهم على أحد وتبعتهم خيل مولانا (...) تقتل وتأسر وتتهب إلى القلعة الصغيرة فدخلتها المخازنية وعدل العرب عنها إلى حلهم...» (89).

ومهما يكن من أمر فإن مشهد عودة الباي حسين أو نجله علي باي مع المقاتلين بخفي حنين وسط السهوب كان أمرا مزعجا بالنسبة لأهل القيروان، لاسيما أنهم رفعوا منذ البداية شعار فرض "الشرعية" وإعادة توحيد البلاد. ويبدو أن "القراوة" ومن معهم عادوا بعد مدة قصيرة مع الأمير علي باي وكتيبته إلى سوسة للمشاركة في الغزوة الثانية التي رتبها محمد الرشيد باي مجددا ضد القلعة الصغرى، ولعلمهم أرادوا إرباك حاميات زواوة وجند الترك التي ركزتها آنذاك سلطات تونس بالقرى الباشية (90). وحاصروا تلك البلدة وضيقوا عليها لمدة يومين أو ثلاثة أيام، لكن صمود السكان و"توبة العسكر" دفع المهاجمين إلى الرحيل ورفع الحصار الذي لم يكن مجديا. وتذكر الرواية أن على باي آمن عملية انسحاب محلة القيروان وكذلك محلة شقيقه محمد باي التي عادت بمدافعها إلى سوسة، إذ رابط مع فرسانه في ظاهر القرية لمنع أهلها من ملاحقة خصومهم المنسحبين. ويضيف صاحب الكتاب الباشي "أنه «...لما حصلت الأتقال والمدافع بسوسة أطلقوا له مدفعا علامة على ذلك فصار إلى القيروان وأقام بها مع أبيه...» (91).

ونسق حسين بن علي بعد أيام قليلة مع ابنه محمد الرشيد باي القابع بسوسة عملية الهجوم على أكودة، وعرفت تلك البلدة بولائها للباشا وموازرتها

(89) ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 377-378.

(90) ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 376.

(91) ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 378.

للقرى المعادية رغم وجودها على مشارف سوسة. واستتفر الباي "القرّاة" وعروش جلاص وأتباعه بقيادة علي باي، بينما قام ابنه بتعبئة عسكر المهدية وغيرهم للإغارة على تلك القرية الواقعة شمال القلعة الصغرى. وتلمح المصادر إلى تحمّس المشاركين في هذه الغارة وصبرهم إذ خاضوا «...قتالا شديدا...» أذهل المدافعين عن البلدة، ولذلك لجئوا إلى المخادعة حتى يجهضوا عملية الاقتحام الوشيكة ويتجنبوا الأسر وتبعاته (92). وتمثلت الخدعة في إعلان استعدادهم للدخول في الطاعة مع توظيف مصاحف القرآن وبراءة الأطفال، لاسيما أن الباي وأولاده كانوا حريصين على عدم تكرار ما حدث في جمال والقلعة الصغيرة. فقد «...بعثوا أولاد الكتاب وفي صدورهم الألواح وقدموا على الفزوع (...) وقالوا غدا نخدم إن شاء الله...»، وأثمرت تلك الحيلة لأن المهاجمين «...لما رأوهم رجعوا من قتال أهل أكودة...» وأبقوا «...الأولاد عندهم...» حسب رواية ابن يوسف (93).

ويبدو أن زعماء أكودة أجمعوا أثناء تلك الهدنة على ضرورة إخلاء البلدة، ولعلمهم هولوا الأمر حتى يدفعوا السكان إلى الفرار أينما شاءوا تاركين أمتعتهم وحيواناتهم. وتمّ الهروب أثناء الليل في سرية تامة حتى لا يتقطن إليهم المحاصرون للقرية، ولا ننسى أن التشرد وسط البادية أضحى في تلك الفترة أمرا مألّوفا لدى أهالي المناطق التي شملتها الحرب الأهلية (94). والراجح أن الأمراء الحسينيين ومن معهم فرحوا حينما أصبحت أكودة خالية واقتحموها

(92) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 89؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 377-378.

(93) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 89. أرجع صاحب "الكتاب الباشي" السيطرة على أكودة إلى الخدعة العسكرية التي استبطنها سيده علي باي إذ قال ما نصه : «...فلما أعياهم أمرها أشار مولانا أعزه الله تعالى بعمل دبابات محشوة صوفا تستمر بها المقاتلة وهجموا عليها فأخذوها...». راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 376.

(94) ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 90.

دون أية مقاومة، وزادت غبظتهم حينما تبينوا أن الفارين تخلوا عن غالب أمتعتهم لاسيما المواد الغذائية والأنعام التي كانوا في أشد الحاجة إليها. فقد «...أخذت الفروع في نهب ما في الديار...» ونبشوا الأرض وخرّبوا الجدران بحثا عن الأموال المخبأة، ويظهر أن الباي استحوذ على مطامير الحبوب لتموين جيشه وتزويد أسواق قاعدته. واستغرقت عملية نهب القرية المنكوبة وقتا طويلا إذ «...أقام الباي حسين أو ولده علي باي أياما يجرون في الشعير منها...»، وأكد أحد المعاصرين أنهم «...جروا منها...» 2200 قفيز شعير إلى القبيروان⁽⁹⁵⁾. وانشغل العديد من الناس بعملية نقل الحبوب وغيرها من المنتجات والأمتعة، والمهم أن تلك المنهوبات أدخلت حركية على أسواق "مدينة الصحابة" التي أرهقتها الحرب.

- نجدة أهل القلعة الكبرى :

شكلت القلعة الكبرى معقلا "للفص الحسني" بشمال جهة الساحل لاسيما أنها تجاور عدة بلدات باشية، وكانت نقطة مهمة بالنسبة لمختلف أطراف الصراع. ولعل ذلك ما جعلها هدفا لحملات يونس باي إثر سيطرته على مساكين، حيث تعرضت في أواخر عام 1149 هـ/ربيع 1737 لأول هجوم شارك فيه جنود زواوة وعسكر الترك. ونجح الأعيان في مغالبة خصمهم متظاهرين باستعدادهم "للخدمة" عند عودة شيخهم من سوسة، وأجهدوا أنفسهم خلال ثلاثة أيام لإتمام حفر الخندق الدفاعي حول بلدتهم⁽⁹⁶⁾. وانطلقت

⁽⁹⁵⁾ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 90. نسب ابن عبد العزيز عملية الاستحواذ على أموال أكودة «...وجميع ما فيها من الأمتعة والأقوات والحيوان...» إلى محمد الرشيد باي الذي نقلها إلى سوسة. راجع: ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 376.

⁽⁹⁶⁾ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 375؛ ابن أبي الصياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113، 116؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 74-75، مخ. 5249 ورقة 84؛

Atlas de Tunisie, 1979, p. 6-7; Despois J., 1955, p. 286-288, 291-292, 318-319; Chater K., 1978, p. 18-21, 25-28; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 164-165; Kassab A., Sethom H., 1981, p. 286-288, 290.

المواجهات بعنف في اليوم الرابع بين الأهالي والمحلة، وفوجئ زواوة والعسكر بكثافة النيران وحدة المقاومة. وتحدث شاهد عيان عن «...كَلْبِ أهل القلعة...» وجريهم إلى عدوهم، وأشار إلى اضطراب جند الترك وهروب زواوة لاسيما أن عدد الجرحى والقتلى في صفوفهم يتزايد باستمرار. ولخص ابن يوسف تلك الحالة بقوله : «...وأما عسكر يونس فكل يوم في القتال مع أهل القلعة هذا مجروح وهذا مطروح وهذا يخرج في الروح فيرسل يونس الصّاح من المجاريح إلى جمّال وأخذت الراكب أهل القلعة الكبرى ولازالوا يحسرون على عسكر الترك إلى أن صار العسكر يهرب من مقابلة أهل القلعة...»⁽⁹⁷⁾. بينما صور مؤلف "الكتاب الباشي" تلك المواجهات بقوله : «...وقعت الحرب بينهم أياما هجمت عساكر يونس على البلد في بعضها إلى أن بلغوا جدرانها ثم وقعت الكرة على أهل القلعة وقاتلوا على حفاظ وحمية فأُتِجَ لهم الظفر واستلموا من العسكر ما ينيف على خمسمائة قتيل وهزموهم إلى أن تجاوزا عن مدافعهم حتى رجعوا بها وضرب يونس بحبة رصاص فصادفت منطقتة فلم تؤثر فيه وكان يوما شديدا وانتهت الهزيمة بدريد إلى البحر...»⁽⁹⁸⁾.

وحرص شيخ القلعة على التنسيق مع الأمير حسين وأطلعه بانتظام على تفاصيل الحرب ونتائجها المشجعة، واقترح عليه انتهاز تلك الفرصة الثمينة للقضاء على محلة يونس. فقد عرض عليه خطة لوضع خصومهم بين فكي كماشة عن طريق مهاجمتهم من الأمام والخلف، وبالتالي لا يبقى «...من يرد الخبر إلا الذي أجله لم يحضر...» حسب رواية مؤلف "المشرع الملكي"⁽⁹⁹⁾. وتحمس الباي أول الأمر لذلك المقترح رغم ظروفه الصعبة، ولهذا «...جمع أحداث القيروان ومن معه وخرج بهم وسار...» إلى البلدة المحاصرة. لكن

(97) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84.

(98) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 375.

(99) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84.

الأخبار التي بلغته أثناء السير ثبُتت عزيمته وأثارت شكوكه إذ أطلعه جواسيسه على الإمدادات القادمة من تونس، ولذلك قرر العودة «...من وسط الطريق ورجع من معه إلى القيروان...» (100). وأشار مؤلف "الكتاب الباشي" إلى وجود مجموعة غير متحمسة لنجدة أهل القلعة الكبرى ودعم صمودهم، وتعلل أفرادها بعدم قدرتهم على إلحاق الهزيمة بمحلة يونس باي التي كانت تحاصر مدينتهم قبل أيام قليلة. وذكر أن محمد الرشيد باي هو العقل المدبر الذي كان وراء ذلك الموقف المتخاذل، رغم أنه لم يتجاسر على التصريح برأيه لأبيه المتحمس لنجدة حلفائه. ولجأ إلى التنسيق مع شقيقه علي باي إذ طالبه بتجميع القضية وتشيط عرائم الذين يؤيدون الخروج للحرب. وأبدى علي باي تفهما لموقف أخيه وأيد تهاونه في تلك الظروف الصعبة، حيث تعهد له بصد «...أهل القيروان عن النفير...» رغم حرص والدهم في ذلك الظرف الاستثنائي على خيار الحرب (101).

ويعود هذا الموقف الداعي للانتظار والترقب إلى الشائعات والأخبار المتضاربة حول حجم الإمدادات الموجهة من حاضرة تونس، وهو ما أثار مخاوف الباي وأولاده من مواجهة محتملة مع محلة العسكر التي تحاصر القلعة الكبرى منذ عدة أيام. ولهذا فإن الأمير علي باي «...كلما كلمه أحد...» من الأهالي «...في شأن الخروج أظهر له الكراهية...»، ولم يستجب لأمر والده حينما طالبه باستنفار "القراوة" وملاقاته عند ظاهر البلد حسب رواية ابن عبد العزيز. وأضاف هذا المؤرخ أنه «...تحيل في تخلفهم عنه بأن ركب بلا

(100) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84. جاء في نفس الرواية ما نصه : «...غضب يونس على من معه من العسكر وبعث إلى أبيه علي باشا يخبره بما صنع العسكر فأمر الباشا بعسكر آخر يلحقه من تونس وركبت الشواش ونذرت على القهواي والفنادق والأسواق وار وار إلى القلعة الكبيرة فالذي خاف خرج والآخر لم يخرج وقعد في بيته ووصل العسكر إلى المحلة...».

(101) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 374.

سلاح ولا أهبة حرب (...) فلم يخرج معه أحد...»، وكان إعلامه لوالده بتناقل الناس وعدم تحمسهم آخر فصول تلك المسرحية (102). واستغرب الأهالي من تلك المواقف المتقلبة رغم صمودهم وتحمسهم للقتال، خصوصا أن الأمير حسين كان شديد الحرص على عدم إظهار خوفه من ملاقاته أعدائه. لكن وصول القوة القادمة من الحاضرة إلى المحلة طرح معادلة جديدة، لاسيما أن جيش يونس باي قطع قسما كبيرا من زياتين غابة القرية المذكورة. وصار بعض زعماء القلعة يشكون في جدوى صمودهم إن لم يساعدهم أهل القيروان وفرسان قبيلة جلاص، ولهذا راسلوا الباي وأطلعوه على وضعهم الصعب وهددوه بإجماعهم حول تسليم بلدتهم والانضمام نهائيا إلى "الصف الباشي" (103).

وأبدى شيوخ القيروان وأعيانها تحمسا واضحا أثناء الاجتماع الطارئ الذي انتظم في دار الباي، والراجح أنهم تأثروا بصيحة الاستغاثة التي أطلقها حلفاؤهم زعماء القلعة الكبرى. وانفقوا على توجيه نجدة عاجلة قوامها 800 نفرا أو 900 نفرا من خيرة شباب أحيائهم «...كلهم بالعدة والمكاحل...»، وأوصوهم بالصبر والثبات وأعطوا لكل واحد منهم نصف سلطاني على وجه الإحسان (104). وخرجت هذه القوة خلال المساء بقيادة علي باي وبعض

(102) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 374-375.

(103) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 375. ذكر ابن يوسف ما نصه : «...وكثر على أهل القلعة الخاطر فخافوا وأرسلوا إلى الباي حسين إما أن تقدم بيدك أو ترسل إلينا نجدة تعاوننا على قتال عدونا وإن لم ترسل إلينا من يقاتل معنا فلا تلوم علينا في خدمتنا...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84. راجع أيضا :

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in *R.T.*, n° 165, mai 1926, p. 355.

(104) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84. ذكر ابن عبد العزيز أن الأمير حسين أشار على ابنه علي باي أن «...يقيم بالقيروان ردا للناس ويفرق العطا فيمن أراد فيخرجهم مددا لأهل القلعة فانتدب لذلك أول يوم خمسمية مقاتل فأخذوا عطائهم وخرجوا وانتدب من الغد أربعماية فأخذوا عطائهم والتحقوا بأصحابهم...». راجع : ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 375.

المشايع، ورافقهم في ذلك الظلام «...من يخبر الموضع...» حتى «...يأخذ بهم إلى أن يصلوا إلى القلعة ولا يفتن بهم أحد...» حسب رواية ابن يوسف. وكان وصول "القراوة" حدثاً مهماً بالنسبة للمحاصرين خاصة أنهم «...سرحوا المكاحل على فتيلة واحدة...» عند دخولهم، وأحى فيهم ذلك المشهد مع زغاريت النسوة روح المقاومة وأعاد إليهم الأمل في النصر⁽¹⁰⁵⁾. وأزعجت تلك المستجدات يونس باي ومستشاريه، لاسيما أنهم لم يكونوا راضين عن أداء جنودهم الذين أرعبهم رصاص الفلاحين. ولذلك قرر الأمير يونس في تلك الليلة رفع الحصار الذي تواصل حوالي شهر والعودة مباشرة إلى الحاضرة، لأنه يئس «...من أمر القلعة وغلبتها وخدمتها...»⁽¹⁰⁶⁾.

وتم رحيل محلة يونس باي في ظروف غير عادية قبل طلوع الفجر، حيث ترك الجرحى والمصابين داخل الأخبية يواجهون مصيرهم المحتوم. وفوجئ أهل القلعة ومن معهم عند الصباح باختفاء المحلة، وقاموا بتقصي أخبارها تحسباً لأية خدعة أو مفاجئة. وكانت فرحة الجميع كبيرة حينما تأكدوا «...بأنها رجعت إلى ثنية تونس...»، لأنهم تخلصوا من ويلات الحرب وقيود الحصر والقهر⁽¹⁰⁷⁾. وانطلق "القراوة" و"القلاعة" نهب مخلفات العسكر في أجواء من الفرحة والعنف والانتقام، وذكر شاهد عيان أنهم وجدوا في «...دار

(105) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84.

(106) يرى مؤلف "المشرع" أن يونس باي هو المسئول عن تراخي العسكر : «...وقعد يونس في وطاقه فتقدم عسكره إلى أن وصل معصرة قرب الطابية فحرقوهم أهل القلعة الكبيرة بالرصاص فلما لم ير العسكر معه يونس قال وعلى من أموت الحاكم هارب في وطاقه عزت عليه روحه ولا لسان ولا إحسان ولا نظرة العينان فروحي أعز من روحه عليه ويرجع إلى ورايه...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84. راجع أيضاً : ابن عبد العزيز، مخ. 18666، ورقة 375.

(107) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84. وصلت تلك المحلة المهزومة إلى الحاضرة يوم 12 جوان 1736. راجع :

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 165, mai 1926, p. 355.

المحلة (...). مجارحاً مشرفين على الموت وبعضهم يدري على نفسه ويطلب من الذي يراه شراب الماء فزادوا عليهم أهل القلعة وقتلوه...» (108). والمهم أن نجدة "القراوة" لأهل القلعة الكبرى كانت في الواقع نزهة عسكرية، لأن شبّانهم المتحمسين لم يشاركوا لحسن حظهم في أعمال القتال. ولعلمهم اعتبروا ذلك ضمن كرامات أولياءهم وزواياهم، والمهم أنهم عادوا إلى مدينتهم مزهوين دون أية إصابات تذكر.

- الإغارة على عروش ناحية صفاقس :

كانت صفاقس خلال فترة الحرب الأهلية في وضعية حرجة نظراً لعدة أسباب جلها اقتصادية، إذ كان أعيانها ممزقين بين التزاماتهم المخزنية ومصالحهم الاقتصادية. فوجهاء المال بتلك المدينة على صلة وثيقة بالحاضرة ومرافئ المشرق الإسلامي وجزر البحر المتوسط، وكانت معاملاتهم التجارية المتنوعة تقتضي منهم الإبقاء على علاقات مرضية مع سلطات تونس (109). ويبدو أن عروش تلك النواحي لم تتورط كثيراً في المأزق السياسي الذي ظهر إثر معركة سمنجة، لاسيما أن عشائر المثاليث والعقاربة ليست ضمن دائرة المناطق الساخنة. ويظهر أن أعيان صفاقس حسموا أمرهم في مطلع سنة 1736 واعترفوا بحكم علي باشا، ويرجع الفضل في ذلك الوقت إلى الوجيه علي

(108) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 75، مخ. 5249 ورقة 84.

(109) أعلن الوجيه علي الجلولي منذ البداية اعترافه بسلطة علي باشا وعبر عن استعدادة للدخول في خدمته، ولهذا تم تعيينه سنة 1736 في خطة قايد صفاقس. أنظر أيضاً : التيجاني، 1981، ص 68-71؛ البكري، 1992، ج 2 ص 668-669؛ الوزان، 1983، ج 2 ص 87؛ برنشفيك، 1988، ج 1 ص 342؛ حسن، 1999، ج 1 ص 231-234؛

Peyssonnel, 1838, T. 1, p. 110-111; *Atlas de Tunisie*, 1979, p. 6-7, 67; Kassab A., Sethom H., 1981, p. 200-203, 236-139, 241; Zouari A., *Les relations commerciales entre Sfax et le Levant aux XVIIIe et XIXe siècles*, I.N.A.A. 1990, p. 26-27, 67-92; Bachrouch T., « Safakus », in *Ency. de l'Islam*, nlle edit., Leiden Paris, 1993, T. 8, 787-789.

الجلولي الذي عيّن عاملاً لتلك القيادة⁽¹¹⁰⁾. والراجح أن شيوخ البادية أنفسهم تأثروا بموقف النخبة الحضرية التي لم تكن متحمسة للحرب والاضطرابات، ولعل ذلك ما يفسر حرص سلطات قصر باردو على احتواء زعماء تلك المدينة وأريافها. وتفيد المصادر أن يونس باي نجح في استخدام ورقة رموز الإسلام الشعبي، خاصة منهم حفيد الولي سيدي علي النوري الذي كان نفوذه واسعاً آنذاك لدى شيوخ المثاليين وغيرهم من الريفيين⁽¹¹¹⁾.

وتابع الباي حسين باهتمام كبير تلك التطورات المفاجئة بنواحي صفاقس، علماً أن تلك المنطقة المنبسطة تشكل همزة وصل بين وسط البلاد وجنوبها الشرقي ولها دور مهم في المبادلات البينية والتجارة مع الشرق الإسلامي. كما أن انتقالها إلى "الصف الباشي" يعني تسهيل مهام الأمحال الباشية في تلك الربوع، لاسيما أن الشاب الطموح يونس باي كان يخطط للالتفاف على مجال عم والده ومحاصرة القيروان⁽¹¹²⁾. ولهذا فإن حسين بن علي وضع خطة لشن غارة انتقامية ضد عروش صفاقس، واعتمد كعادته على زواوة والصبايحية وفرسان جلاص وبعض "القراوة". ولم يفرد ابن يوسف سوى بضعة أسطر لهذه الحادثة، وهي لا تختلف كثيراً عن باقي الغارات القبلية التي تمت في تلك الفترة. واستطاع الباي وأتباعه مباغتة خصومه الذين دافعوا عن أهلهم

(110) أ. و. ت. دفتر 21 ص 64، دفتر 22 ص 54، 103، 107، دفتر 26 ص 229-235؛ السعداوي، تطور عائلة مخزنية بتونس في العصر الحديث...، ش. د.، 1999، (مرقونة)، ص 104-107؛ مهدي جراد، عائلة الجلولي من النصف الثاني للقرن الثامن عشر إلى 1830 م، ش. د. م.، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2001، (مرقونة)، ص 31-32؛ Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in R.T., n° 165, mai 1926, p. 352.

(111) خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان...، ص 127-129؛ ابن عبد العزيز، مخ 1866، ورقة 358-363، 373؛ مقديش، 1988، ج 2 ص 358-369؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113؛ حسن، 1999، ج 1 ص 235-240.

(112) الوزان، 1983، ج 2 ص 87-90؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 4، ج 8 ص 161-162؛

Despois J., 1955, p. 164-165, 188-191, 269; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 160-161; Kassab A., Sethom H., 1981, p. 172-177, 197-203, 235-239.

ومواشيهم، واستولوا على قطعان الماشية ونهبوا ما قدروا عليه من الأمتعة. لكن هذه الغارة لم تكن نزهة مثلما حدث سابقا في القلعة الكبرى، حيث تلقى المغيرون بعض الضربات الموجعة التي أودت بحياة عدد منهم مثلا الشاوش علي بن دلهومة وغيره (113).

- الكمين ضد صباحية الباشا حول القيروان :

تمت هذه العملية على الأرجح في خريف عام 1150 هـ/سبتمبر-أكتوبر 1737 وكانت في الأصل غارة باشية ضد عروش مجال القيروان، لكن يقظة جواسيس الباي حولتها إلى كمين موفق لفائدة "الصف الحسيني" حسب رواية ابن يوسف. فقد كلف يونس باي عند مغادرته القلعة الكبرى آغة باجة وآغة الكاف بحماية القرى الباشية في جهة الساحل، وحاول هذان القائدان ومساعدوهم القيام بانجاز عسكري لتلميع صورتهم أمام سيدهم والتقرب إليه. ورتبوا خطة للهجوم ليلا على جلاص النازلين مع عشائر أخرى غرب القيروان، واطلع عملاء الباي المندسين بينهم على تلك الخطة ونقلوا تفاصيلها بسرعة إلى دار الباي (114). ويظهر أن الأمير عقد اجتماعا طارئا مع مستشاريه والشيوخ لإجهاض مخطط العدو، واتفقوا على ضرورة إعلام تلك العروش بواسطة "تسريح" المدافع في بداية تلك الليلة. ويبدو أن هذه الإشارة متفق عليها ومعلومة لدى زعماء العروش الحسينية، ولذلك بادروا بالرحيل مع ذويهم وقطعانهم بمجرد سماع أصوات القذائف. وكان دخولهم القيروان في ذلك الليل مكسب مهم بالنسبة للباي إذ تم إنقاذ أهم مجموعة مخزنية، خصوصا

(113) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 78، مخ. 5249 ورقة 88.

(114) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 399-400؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 90.

أنه كان في أمس الحاجة إلى الفرسان لمواصلة الحرب ضد أمحال ابن أخيه (115).

وتشير رواية ابن يوسف إلى كون شيوخ جلاص دافعوا عن خيار التصعيد أثناء الاجتماع الموسع الذي عقده حسين بن علي إثر بلوغهم القيروان، واقترحوا عليه ترتيب كمين في "نزلتهم" اعتمادا على الفرسان فقط لمفاجئة خصومهم الذين لا علم لهم برحيلهم. فقد «...قالوا له هذا الغزو الصباح يصل ديارنا (...) فاسمع كلامنا نخرج إليهم ونتفرق عليهم من كل ناحية وندوروا بهم ونكمنوا حتى لا يرانا أحد فإذا وصلوا وحصلوا في وسطنا هجمنا عليهم من كل ناحية وهم مطمئنون بأنك ما عندك قوم...»، وتجاوب البايع مع تلك الخطة التي ستلتم صورته وترفع معنويات أتباعه داخل مجالهم الطبيعي⁽¹¹⁶⁾. وانطلق فرسان جلاص و"القراوة" وغيرهم في ذلك الليل نحو الموضع المحدد، واتخذوا مواقع قتالية متفرقة منتظرين وصول العدو وطلوع الفجر. وأشار ابن يوسف إلى عدم تحمس الصبايحية للحرب واستغراب قادتهم من خلاء المكان واختلاف آراءهم، وهو ما سهّل على الفرسان إنجاز مهمتهم بأقل التكاليف إذ هاجمهم من كافة الجهات. وكانت الصدمة قاسية على الصبايحية الذين تعرضوا للقتل

(115) جاء في كتاب "المشرع" ما نصه : «...فلما سمع البايع حسين بهذا الخبر أمر أن يسرح مدفعا كبيرا لتسمع به جلاص فتهرب من ذلك الموضع (...) فسرحوا المدفع من الجهة التي فيها عرش جلاص فسمعوا صوت المدفع جلاص في الليل وهو غير معتاد عندهم فوقفوا وقالوا ما سرح هذا المدفع في هذا الوقت إلا لأمر مهم فقال من ألهمه الله هذا صوت المدفع من القيروان ينذر عليكم أن ارحلوا حين سماعكم فوافقوه على قوله ورحلوا بنزلهم وسعيهم...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 79، مخ. 5249 ورقة 90.

(116) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 80، مخ. 5249 ورقة 90.

والسلب والأسر خاصة صبايحية الكاف، ولم ينج منهم إلا قليل من الفرسان مثلاً المدعو عصمان آغة باجة وبعض أتباعه⁽¹¹⁷⁾.

بينما قدّم ابن عبد العزيز هذه الحادثة بطريقة مغايرة إذ تحدث عن طمع علي باشا في أخذ قبيلة «...جلاص ومن بقي مع المولى الأمير من دريد وغيرهم...» النازلين حول القيروان، ولذلك «...جهز لهم جيشاً كثيفاً وأمر عليهم أحد آغات الصبايحية من المماليك اسمه عثمان آغا ومعه عمار بن عيسى كاهية الصبايحية وغيره من الرؤساء...»⁽¹¹⁸⁾. وذكر أن كتيبة فرسان العدو التي جاءت مباشرة من حاضرة تونس لم يقع اكتشاف أمرها إلا حينما بلغت موضع ذراع التمار، وأكد بصفة خاصة على دور أهل القيروان أثناء تلك المواجهة. فقد خرجوا بسرعة مع سيدهم الباي لقتال خصومهم قبل اقترابهم من أسوار المدينة-الرمز، ولعل ذلك ما ساعد العروش المستهدفة على اللجوء «...بحلهم وأنعامهم ومواشيهم إلى سور البلد...»⁽¹¹⁹⁾. واعتبر هذا الفقيه تلك الواقعة بارقة أمل لزعماء "الصف الحسيني" وأنصارهم ولخصها بقوله : «...وشغل المولى الأمير العدو عما قصدوا إليه من أخذهم وناوشهم القتال ووقع الطراد ساعة من نهار ثم أمر بإحضار المدافع من البلد فأتي بها على العجل فأمر الرامي أن يضع الكرة في كبكة الخيل ففعل فكانت هزيمتهم فولوا

(117) وصف مؤلف "المشرع" ذهول الصبايحية بقوله : «...فما شعروا إلا والخيل صدمتهم من ناحية القيروان فوقفوا ينظرون إليها وإذا بكردوس الخيل الذي عن يمينهم وصار الآغتان وقومهم في الوسط ودارت بهم الخيل من كل ناحية حتى ظنوها أنها آلاف وكان عصمان آغة الباجية راكب السرحان فأطلق له العنان وتبعه خدامه فلحقوهم الفرسان فقتلوا بعضهم وانفلت منهم عصمان آغة ومن نجا من الموت وبقي القوم وآغة الكافية أحاطت بهم الخيل يقتلون ويأسرون ويسلبون فقتل آغة الكافية ومن معه من صبايحية الكافية وأما الذي حصل وأسروه من صبايحية الباجية فلم يقتل منهم أحد (...) ثم لما قتلوا ما قتلوا وأخذوا ما أخذوا رجع كل واحد إلى مكانه...» راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 80، مخ. 5249 ورقة 90. وكذلك : أ. و. ت. دفتر 26 ص 250.

(118) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 399.

(119) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 399.

لا يلوي أحد على أحد وتبعهم جند المولى الأمير يقتلون ويأسرون فأخذوا عثمان وعاغا أمير الجيش وعمار بن عيسى كاهية أسيرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وامتألت أيديهم من خيلهم وسلاحهم وأسلابهم...» (120).

وبالتالي يمكن القول إن هذه الانجازات العسكرية المتواضعة كانت تدخل الفرحة على الباي وأولاده وجميع أنصارهم، رغم اختلاف الروايات حول تفاصيل الأحداث وأبعادها. فهي تزيل عنهم متاعب الواقع وتعيد إليهم الثقة بالنفس، ولعل بعض المتحمسين منهم صاروا يحلمون بأخذ الثأر وتحقيق الانتصار على أعدائهم.

- دور "القراوة" وجلاس في الصراع بالوسط الغربي =

شكلت منطقة الوسط الغربي من البلاد محورا رئيسيا للصراع بين "الصف الحسيني" و"الصف الباشي" خلال سنوات الحرب الأهلية، لأنها تعتبر بوابة واحات شط الجريد التي تقصدها سنويا محلة الشتاء عبر طريقها المعهود. ومن المؤكد أنها شغلت الباي القابع داخل القيروان لاسيما حينما راهن على التحالف مع قبائل الشرق الجزائري، لكن الأخبار التي نقلتها المصادر تبقى قليلة جدا وغامضة وأحيانا متضاربة حتى في كتاب "المشرع الملكي" (121). وذكر ابن عبد العزيز أن محمد الرشيد باي لم يكن مرتاحا داخل القيروان إثر عودته من غزوة تونس، ولذلك نسق مع والده للخروج إلى مشارف الصحراء. وفي هذا الإطار اتجه مع أنصاره نحو واحة قفصة التي بها «...ذخايرهم (...)

(120) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 399-400. راجع أيضا : ابن يوسف، مخ 5264، ورقة 209.

(121) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113-114؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71-72، مخ. 5249 ورقة 80؛

Atlas de Tunisie, 1979, p. 6-7, 67-68; Despois J., 1961, p. 85-90, 101-107; Pellissier E., 1980, p. 130-131; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 159-160; Hénia A., *Le Grid, ses rapports avec le Beylik de Tunis (16761840)*, Tunis, 1980, p. 16-17, 33-54.

من الحبوب والأدام...»، وأشرف بنفسه على استخراج ذلك المخزون الغذائي وتوزيعه على العشائر "الحسينية" التي رافقته (122).

وأشارت بعض الروايات المقتضبة إلى كون الأمير حسين اعتمد أول الأمر على ابنه علي باي لإدارة شئون القيروان وحمايتها، حتى يتفرغ للقيام ببعض التنقلات والغارات خاصة داخل المنطقة الواقعة بين الأطراف الغربية للمجال القيرواني ومنطقة الشطوط. واستخدم في تلك التحركات منذ شهر جانفي 1736 محلة صغيرة قوامها تقريبا عشرة "أخبية"، وكانت ترافقه عشائر من الهامة وبعض "القراوة" وفرسان جلاص وأولاد عمار بن دالية من قبيلة دريد (123). ويبدو أن الباي حسين كان يريد استقطاب بعض العروش القوية لتوسيع قاعدته الاجتماعية، رغم تنكر غالب أهل قفصة الذين أطردوه مع أتباعه وأطلقوا الرصاص عليهم في بعض المناسبات. كما حرص على إظهار وجوده بالجنوب الغربي لليلة إذ كان «...من هنا يرجع إلى هنا...» حسب قول ابن يوسف، ولعله كان خائفا من الملاحقة رغم أنه يودّ تأمين حركة القوافل التجارية بين مجال الشطوط وأسواق السباسب وجهة الساحل (124).

وأشار ابن عبد العزيز إلى أن علي باي حينما توجه إلى الحنانشة في بداية 1150 هـ واجه مضايقة كبيرة داخل مجال قفصة، رغم أنه كان مصحوبا بحوالي ألف فارس من أبناء العروش كأولاد مسعود وغيرهم. فقد

(122) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371.

(123) ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113-114، ج 8 ص 84؛ ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71-72، مخ. 5249 ورقة 80؛ ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 371، 373؛ Gandolphe M., «Lettres sur l'histoire...», in R.T., n° 165, mai 1926, p. 352; Pellissier E., 1980, p. 122-128; Ganiage J., 1968, p. 129, 149-151.

(124) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71-72، مخ. 5249 ورقة 79-80؛ السعداوي، "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان..."، مسار مؤرخ...، 2008، ص 55-56؛ Frank L., 1979, p. 26, 123-124; Pellissier E., 1980, p. 140-147; Chater K., 1984, p. 61-62, 125, 138, 140.

«...جمع رجب بن يوسف الحسني قائد الهمامة من بقي معه منهم واستجاش أهل قفصة وعسكر الترك الذين بقصبتها وزحف إلى لقاءه...». ولجأ علي باي إلى إغراء صناع القرار حيث «...كساهم ووصلهم فتقاعدوا عنه وتخاذلت بذلك سائر الهمامة، ولذلك هرب القاييد المذكور مع أتباعه «...ودخل أهل قفصة والترك بلدهم...»⁽¹²⁵⁾. ويرجع هذا الموقف السلبي الذي تبناه أهل قفصة إزاء القضية الحسينية إلى مساندة عروش السباسب العليا "لصف الباشي"، بالإضافة إلى كون بلدتهم تقع على الطريق التي تسلكه أمحال الأمير يونس باي أثناء فصل الشتاء نحو واحات الجريد.

لكن المعلومات التي احتفظت بها المصادر قليلة ومتفرقة وتتعلق أساسا بتنقل حسين بن علي مع أنصاره داخل ذلك المجال الجغرافي الواسع، وأظهره الرواة غالبا في مواقف صعبة كحالات الفرار أو الانسحاب. فعلى سبيل المثال نقل شاهد عيان وقائع غارة يونس باي على الهمامة وجلاص قرب واد اللبن حينما كان الباي قريبا من قفصة برفقة المدعو أحمد الجدر شيخ الحمارنة، وتحدث عن هجوم أولاد بن عمامة (همامة) على الأمير حسين ومن معه وكيفية إنقاذه من قبل نجله محمد باي وبعض فرسان دريد... الخ⁽¹²⁶⁾. ويظهر أن

(125) ابن عبد العزيز، مخ، 18666، ورقة 379.

(126) وصف مؤلف كتاب "المشرع" المعركة مع عرش بن عمامة بقوله : «...سار الباي حسين والقوم إلى أن ظهرت لهم قفصة عند الزوال ونظرتهم أهل قفصة دخنوا على الباي حسين وقومه بالنفاق سار الباي حسين والقوم إلى أن وردوا ماجن بوعلام وتخلف محمد باي ومعه الخيل الصحاح يديبون ويلحقون في جلاص وأما الصبايحيه والباي حسين مع المحيلة فزعت عليهم الهمامة أهل بن عمامة قدر مائة من الخيل وقدر مائتين من التراسة ووصلوا الباي حسين وصاروا يقولون له يا بياع الملح أين تروح فسرعت عليهم الخيل فدخل بينهم الباي حسين وهو ينذر على الهمامة وهو يقول لهم ببني وبيبنكم رسول الله ما لكم حاجة عندي فهو في ذلك الكلام معهم وإذا محمد باي ولده يركض وهو يقول الجهاد في سبيل الله وصدم على الهمامة فعرضه أبوه ورده وأما أولاد عمارة بن دالية فإنهم ساقوا عيالهم وبعنوا بهم حتى قالوا أنهم هربوا فما رأيناهم إلا وهم عرايا في السروج ما يستترهم إلا السراويل وهم يندھون في بعضهم بعضا ويقولون الجهاد الجهاد ودفعت الخيل على الخيل فما وقفت الهمامة ولا ساعة ورجعوا هاربين وتركوا سعيهم ورحلهم وترسهم وكانوا في بحيرة ودارت بهم الخيل من كل ناحية فصار الواحد منهم يدخل رأسه في السدرة فيخلط عليه الفارس فيضربه فما طاحت الشمس إلا قصوا من الرجلية خمسة وأربعين رأسا وأخذت القوم في سلبهم وتركهم وساروا داخلين الليل...». راجع : ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71-72، مخ. 5249 ورقة 79-80. ابن عبد العزيز، مخ، 18666، ورقة 371، 373.

الأمير وجد بتلك النواحي القاحلة صعوبة في الحفاظ على ولاء أتباعه ووحدتهم، حيث تخلى عنه بعضهم لاسيما بالنسبة لأفراد عسكر زواوة الذين قدم لهم علي باشا آنذاك وعود الأمان المغربية. وصوّر أحد صبايحية الباي ذلك الوضع بقوله : «...وكان وصل إلينا الكلام الذي قاله علي باشا من لم يقبل يدي ولم يحرك عندي فإذا رجع إلى بلاده فإني أمنتته على قتله وأولاده وماله وعياله فصار كل من لم يهرب من عند السلطان عاملا على الرجوع إلى تونس فافتרכת القوم فالكثير منها قصد تونس ووصل إلى الباشا علي أمنه وخدمه...» (127).

وتدخل زعماء الشرق الجزائري بطريقتهم في تلك الأحداث والصراعات لأن بعضهم كانوا في البداية حلفاء لعلي باشا، وقاموا بعمل استخباراتي مهم لفائدته حيث أطلعوه على تحركات عمه ومخططاته العسكرية. كما تظاهروا أحيانا بنصح الباي حسين ومساعدته، خصوصا وجهاء عرش أولاد عمار الذين كان قد أعانهم سنة 1724 لإقصاء منافسيهم والانفراد بمشيخة قبيلة الحناشنة. ولجأ أُنك المشايخ كعادتهم إلى تزييف الأخبار ونشر الإشاعات الكاذبة لدفع الباي المتردد إلى مراجعة مواقفه وتغيير مواقع قواته حتى يسهلوا تنقلات أمحال يونس باي العائدة من واحات شط الجريد ويجنبوه عناء المواجهات المحتملة مع عدوه (128). كما استغلوا تلك المناورات للتقرب من سلطات قصر

(127) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 80. علق صاحب "الكتاب الباشي" على تلك الوضعية بقوله : «...أقلع (أي يونس باي) عن القيروان وارتحل متوجها إلى الجريد وسلك طريق العروثة قاصدا المولى الأمير بمخيمه من وادي اللين فلما دنى منه أجفل أمامه إلى قفصة وانتهيت كثير من العرب الذين معه واضطربت أحوال من معه وكثر الإرجاف والخوف فأصبح راحلا عنها إلى الصحراء فارتحل عنه أكثر العرب وفارقه أيضا أكثر من معه من المخازنية فرجع بعضهم إلى القيروان وذهب الكثير منهم إلى تونس...» راجع : ابن عبد العزيز، مخ. 18666، ورقة 372-373.

(128) أعطى يونس باي في صيف عام 1151 هـ "علي يد مصطفى بن يوسف" إحسانا قدره 10 ريات "سيارت أولاد عمار" و24 ريال "إحسان لسيارت بوعزيز". راجع : أ. و. ت. دفتر 22 ص 20-21. أنظر كذلك : ابن عبد العزيز، مخ. 18666، ورقة 345-347، 355-357، 379-383؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113-114؛ جميلة معاشي، "أسرة أحرار الحناشنة..."، م. ت. م، عدد 128، جوان 2007، ص 147-149، 158-160؛

باردو بتونس واعتبروها من علامات الولاء والخدمة، فمثلا ذكر صاحب كتاب "المشرع الملكي" أنه في إحدى الليالي «...وردت سيارة من عند أولاد عمار بمكاتيب من عندهم وفيهم يا باي حسين ارفع روحك فإن علي باشا سرح إليك من تونس و يونس ولده سرح إليك من قفصة فرحل الباي حسين (...) في أعقاب ذلك الليلة وجاء على اكس وعلى خنقة أم الدكاكين وجاء على بحاير الأرنب ومعه الصبايحية ودريد كلهم جميعا إلى أن بات (...) عاتر البير...» (129). وأضاف مؤلف "الكتاب الباشي" أن الباي حسين قصد «...بلاد اللمامشة فأقام عندهم أياما...» طلبا للنجدة، واتجه ابنه الأمير محمد الرشيد «...إلى الحنانشة وهم بتبسة فدخل بيت سلطان بن عمار مستجدا به فوعده...». والتحق به والده الذي اتصل بالشيخ أحمد الصغير وشقيقه سلطان «...وأعطاهما عشرة آلاف ريال وثلاثة أفراس...»، ولذلك وعده بالمساندة التي لم تتحقق رغم إلحاح الباي (130).

خاتمة :

يمكن القول في نهاية التحليل إن حسين بن علي حينما لجأ إلى القيروان لم يستسلم للأمر الواقع رغم وعيه بعدم تكافؤ القوى وتقدم سنه، بل تزعم مع أبنائه حركة معارضة مسلحة شعارها إعادة وحدة الإيالة واحترام "الشرعية" التي كانت قائمة قبل معركة سمنجة. ولذلك قادوا عدة عمليات عسكرية اتخذت

Gandolphe M., « Lettres sur l'histoire... », in *R.T.*, n° 165, mai 1926, p 363; Féraud Ch., « Les Hrsars Seigneurs des Hanancha », in *R. A.*, 1874, n° 105, p. 222-236, n° 106, p. 281-238; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 139.

(129) ابن يوسف، مخ. 10868، ورقة 71، مخ. 5249 ورقة 80. عاتر البير هو موضع جنوب شرق ولاية الجزائر، ويعرف حاليا باسم بنر العاتر.

(130) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 373. راجع أيضا : ابن يوسف، مخ 5264، ورقة 208؛ Féraud Ch., « Les Hrsars... », in *R. A.*, 1874, n° 106, p. 283-284; Cherif M.H., 1986, T. 2, p. 139.

في جملتها شكل غارات قبلية على أهداف محددة، وكانوا حريصين على خلق حالة توتر دائمة وإزعاج خصومهم باستمرار رغم التزامهم قدر الإمكان بتجنب أية مواجهة مباشرة مع الجيش الانكشاري⁽¹³¹⁾. فعلى سبيل المثال استنفر الباي وابنه محمد الرشيد عروش الهمامة وجلاص وغيرهم إثر موقعة جمال، وقادا غارة ضد عروش ورتتان وماجر المقيمين آنذاك بناحية سببية. لكن أبناء تلك العشائر الباشية «...دافعوا دفاعا شديدا وصدقوا القتال...»، ولذلك انهزمت جموع الباي وتعرض بعضهم للنهب قبل عودتهم إلى القيروان⁽¹³²⁾.

لكن هذه التحركات الجريئة لم ترتق إلى مستوى حرب العصابات المألوفة، نظرا لتعدد الزعامات في أرض الميدان وتتنقل المقاتلين غالبا في شكل مجموعات كبيرة. ولا ندري سبب تعاضل الباي وأولاده عن نصب الكمائن لأمحال الباشا ومباغتتها أثناء أسفارها، رغم أن طريقة تنقلها تجعلها في الواقع هدفا سائغا وسهلا خاصة قرب الرّبي والمرتفعات⁽¹³³⁾. وأعتقد أن هذه الأمور قللت من نجاعة الأعمال العسكرية التي تم إنجازها بعيدا عن القيروان، ولعل هذا ما ساعد الخصم على الاستفادة من العامل الزمني والتضييق أكثر فأكثر على ذلك النشاط المسلح. فما هي ملامح الحصار الذي فرضه يونس باي على المدينة منذ شتاء 1149 هـ/1736-1737 ؟ وكيف تم اقتحام تلك القلعة الحصينة في الأخير رغم صمودها الطويل ؟

(131) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 373-374.

(132) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 373-374؛

Atlas de Tunisie, 1979, p. 6-7; Pellissier E., 1980, p. 126-129; Despois J., 1955, p. 162-163, 167; Ganiage J., 1968, p. 148-150.

(133) ابن عبد العزيز، مخ 18666، ورقة 359-361، 365-372؛ ابن أبي الضياف، 2004، م 1، ج 2 ص 113. راجع أيضا :

Che Guevara, *La guerre de guérilla*, trad. de l'espagnol par Chaliand G. et Mincez J., collection Maspéro, Paris, 1962.

